رحلة إلي أثيوبيا

في السنوات 1670 - 1699 - 1698

بونسيه

ترجمه من الإنجليزية :

د. فضل الله إسماعيل علي حمد

أ. خضر محمد سعيد

راجعه :

د. إنتصار الزين صغيرون



المترجم

الإسم : فضل الله إسماعيل علي حمد.

سوداني، ولد في الدويم في 1968م النيل الأبيض، السودان .

المراحل الدراسية :

تعلم بمدرسة أبو حبيرة الإبتدائية، فالدويم (1) المتوسطة ، ثم الدويم الثانوية .

التعليم الجامعي وفوق الجامعي :

الدكتوراة في اللغة الإنجليزية (ترجمة)، جامعة الجزيرة 2006م.

ماجستير الترجمة، المعهد الإسلامي للترجمة الخرطوم 2000م.

الدبلوم العالي في الترجمة، القسم الثلاثي (فرنسي - إنجليزي - عربي)،

جامعة الخرطوم 1995م .

بكالريوس الآداب، تخصص اللغة الفرنسية، جامعة أم درمان الإسلامية 1992م.

المراتب العلمية :

محاضر بجامعة السودان المفتوحة (2006 - 2004م).

أستاذ مساعد بجامعة السودان المفتوحة (2006- 2010م).

أستاذ مشارك بجامعة السودان المفتوحة (2010-).

الخبرة العملية :

مذيع مترجم، الإذاعة السودانية، البرنامج الفرنسي (1993- 1994م).

مدير فرع الترجمة، الدراسات الإستراتيجية - الخرطوم (1995- 2001م).

رئيس قسم الإذاعة والتلفزيون، جامعة السودان المفتوحة (2003- 2006م).

رئيس قسم الترجمة والتعريب، جامعة السودان المفتوحة (2007- 2010م).

مدير إدارة البحوث والتخطيط والتنمية، جامعة السودان المفتوحة (2010م -).

التأليف والترجمة :

تأليف عدة بحوث باللغة الإنجليزية والفرنسية .

الترجمة من الإنجليزية إلى العربية لأكثر من كتاب ومجموعة علمية .

الترجمة من الفرنسية إلى العربية لأكثر من كتاب ومجموعة علمية .



الغلاف : محمد يوسف حمزه

رحلة إلي أثيوبيا

في السنوات 1670- 1699 - 1698

بونسيه

ترجمه من الإنجليزية:

د. فضل الله إسماعيل علي حمد

أ. خضر محمد سعيد

راجعه:

د. إنتصار الزين صغيرون

فهرس المكتبة الوطنية

منشورات جامعة السّودان المفتوحة، الطبعة الأولى 1433 هـ/ 2012م

A

VOYAGE

TO

ETHIOPIA,

MADE

In the Year 1698, 1699, and 1700

By Monfieur **PONCET, M. D.**

تقديم

الحمدالله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. إنها لفرصة طيبة أكرمني بها الله للمرة الثالثة بأن أشهد إنجازاً ثالثاً من إنجازات إدارة البحوث والتخطيط والتنمية بجامعة السودان المفتوحة في إبراز ماضي السودان العريق. كان الإنجازان السابقان هما كتاب الكرو، المجلد الأول من مجلدات جبانات كوش الملكية، الذي ترجمته البروفسير سامية بشير دفع الله. والثاني كان رحلة لينان دو بلفون إلى مروي الذي كان قد ترجمه الدكتور فضل الله إسماعيل علي، والآن صار بأيدي محبي تراث السودان كتاباً حاوياً لمعلومات مهمة عن السودان في القرن السابع عشر الميلادي. كاتب الكتاب هو بونسيه (Poncet)، صاحب الاسم المألوف لدارسي مملكة الفونج الإسلامية، أو السلطنة السنارية، أو السلطنة الزرقاء بأسمائها التي عرفت بها، وهو أقدم شاهد عيان على مملكة سنار معروف لدينا، وإن لم يفصل كثيراً كما فعل لينان دو بلفون عن السودان بعده بنحو مائة وثلاث وعشرين سنة، وكما فعل كايُو بصورة أفضل منهما في زمن لينان نفسه.

إن أول سؤال يطرحه المرء على نفسه هو في عهد أي ملك من ملوك سنار كانت زيارة بونسيه للبلاط الملكي السناري الذي وصله في الحادي والعشرين من مارس 1699م. فهذا التاريخ يقع في زمن الملك بادي الأحمر،

ابن أونسة أخ بادي أبو دقن المشهور. حكم بادي الأحمر لسبع وعشرين سنة هن 1100هـ - 1127هـ، الموافقة للفترة 1688م - 1715م، حسب تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل لمخطوط كاتب الشونة (ص40).

وكان بادي الأحمر "مهاباً معظماً في ملكه إلى أن توفي في سنة 1127هـ"، كما وصفته المخطوطة التي حققها مكي شبيكة (ص 5)

1) بعنوان مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة، جمعها وكتبها أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة. تحقيق الشاطر بصيلي عبدالجليل (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 1420هـ / 2009م).

2) تاريخ ملوك السودان. اشترك في تأليفه وتنقيحه أربعة من المؤرخين السودانيين، وهم الشيخ أحمد كاتب الشونة، والزبير ود ضوة، والأمين الضرير، وإبراهيم عبد الدافع. تحقيق مكي شبيكة. الخرطوم: ماكور كوديل، 1947م .

لكن الملك الذي كان في سنار في زيارة بونسيه كان صغير السن، في التاسعة عشرة من عمره، يميل إلى البذخ والمتعة. يقضي يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع في بيت ريفي له، يتغدى ويقضي بقية يومه فيه. يضم موكبه الضخم (ص ص 14 - 15) ما بين خمسمائة إلى سبعمائة فارس، ثم مشاة يمدحونه ويضربون على الدفوف، وما بين سبعمائة إلى ثمانمائة من

الفتيات والنساء يحملن على رؤوسهن مايشبه "الكابدلو"، به أطباق اللحوم والفاكهة، وكانت تسليته هي توزيع الهدايا على حاشيته، والرمي معها بالبنادق.

فهذا الوصف لا يناسب بادي الأحمر المهاب المعظم في ملكه، وإنما يناسب أونسة ابنه، والذي حكم بعده. فقد اتفقت نسختا مخطوطة كاتب الشونة بأنه كان لاهياً إلى درجة الفجور؛ "انهمك في اللهو واللعب وارتكاب الفواحش" (تحقيق شبيكة: 5)، " وصاحب لهو وهوى مع الرجال والنساء" (تحقيق الشاطر بصيلي: ص 40). لكن تاريخ أونسة القصير، لأربع سنوات فقط، لا يوافق زيارة بونسيه. فالنسختان اتفقتا في فترة حكمه، وأنها كانت بين 1114هـ و1130هـ، الموافقة للسنوات 1715م – 1718م في تحقيق الشاطر بصيلي (ص 40، الهامشان 3 و9)، وذلك بفارق ست عشرة سنة، مابين وصول بونسيه سنار في مارس 1699م، وبداية حكم أونسة في 1715م.

ولا حلَّ لجعل أونسة هو الملك الذي زاره بونسيه في 1699م إلا بالتساؤل ما إذا كان رواة تاريخ ملوك سنار قد أخطأوا في تاريخ أونسة والملوك السابقين له.

ثمة نقطة مهمة في تاريخ زيارة بونسيه لسنار هي أنها كانت بعد اثنتين وعشرين سنة من حكم بادي أبو دقن، الذي حكم للفترة 1052هـ – 1088هـ، الموافقة للسنوات 1642م – 1677م. وكان عهداً زاهياً عمرً فيه سنار، وهيأها

لتكون مقراً، وجعل لمملكته صيتاً وسمعة في مصر طيبة خاصة. ولا بد أن يكون بونسيه قد بلغه هذا الصيت في مصر قبل سفره إلى الحبشة ماراً بسنار. اتفقت نسختا مخطوطة كاتب الشونة بالثناء عليه، وكانت مكارمه كثيرة ومحاسنه شهيرة (الشاطر بصيلي: 32)، "وهو من ذوي الشجاعة والكرم والهمم العالية" (شبيكة: 3).

هو الذي عمرَّ سنار على النحو الذي شاهدها فيه بونسيه. فما ذكرته وانفردت به المخطوطة التي حققها الشاطر البصيلي، (ص ص (3 – 32) "هو الذي بنى المسجد بعد تأسيس أبيه"،

وجعل له الشباك الذي جاء به الحاج سيد صاحب العبيدي [وكذلك بنى مقر الحكومة وجعله من خمس طبقات بعضها فوق بعض، وبنى أماكن عديدة لوضع مهمات الحكومة من أسلحة وغيرها خلاف بيوت الحريم، وخلاف ديوان جلوسه، وله ديوانان اثنان أحدهما خارج القصر الكبير وأحدهما داخل حائط القصر، وجعل على الجميع حائطاً كبيراً ، وجعل في الحائط المذكور تسعة أبواب... إلخ)" كانت هذه هي سنار التي رآها بونسيه (ص ص 12 – 13) ورسمها كايّو، من أكثر من موقع، مظهراً للمسجد والقصر ذي الطوابق الخمسة الظاهرة وإن كان بعضها أعلاه قد تهدم.

كانت هذه هي سنار بونسيه، فكيف وصل إليها وما رآها ؟ كل ذلك مفصل في الكتاب. لكن ما يستحق ذكره في هذا التقديم بعض الأشياء اللافتة للنظر .

من هذه الأشياء وقفة بونسيه ومرافقه القس برفدنت في دنقلا في الثالث عشر من نوفمبر 1699م. لفت نظره في دنقلا البيع بالمقايضة (ص 7)، وأنه بالرغم من بساطة الغذاء، فإن الرجال يبدون أمتن وأقوى من الأوربُيين (ص 8).

ومن الأشياء أيضاً وصفه حالة القس برفدنت وبكاءه في دنقلا عند تذكره أن تلك البلاد وقبل سنوات ليست بالبعيدة كانت دولة مسيحية (ص 8). لكن القس برفدنت انتقم لنفسه ولدينه في سنار فيما بعد حين جيئ لبونسيه بطفلة تركية عمرها ما بين خمسة أو ستة أشهر، مريضة مرضاً ميئوساً منه لعلاجها، فاستغل القس هذه الفرصة وتظاهر بأنه يقرأ على الطفلة رقية لعلاجها بينما كان يعمدها لتموت على المسيحية، ولما ماتت سُرَّ الاثنان القس برفدنت لأنه عَّوض ما كان قد عاناه من آلام نفسية في السفر في دولة إسلامية كانت من قبل مسيحية. وبونسيه نفسه وجد عزاءً في فعل برفدنت، لأنه كما قال عَّوضه عن إثيوبي بسنار كان مسيحياً، فأسلم ثم ارتد فأقيم عليه حد الردة.

ثمة نقطة ثالثة ملفتة للنظر هي ذكره أن صحراء البيوضة لا ينبغي عبورها في أقل من خمسة أيام مهما كانت سرعة البر(ص 16) : وهذا يبيِّن الخطأ الكبير الذي وقع فيه إسماعيل باشا حين أصرّ على عبورها في أربعة أيام. وذلك ما أرهق الجيش والجمال جداً، كما جاء في وصف كايوّ (Caillaud) للرحلة، وما بلغ الكل من إعياء. كانت الجمال تسقط ميتة، وإذا بركت تعجز عن النهوض ، وكانت الناس تفضل السير على الأقدام على ركوب الجمال خوفاً من السقوط من فرط الإعياء والنعاس؛ بل بلغ من تعجل إسماعيل باشا أن ترك المدافع وراءه واندفع هو وطلائع الحملة نحو النيل، وهذه معلومة لو كانت للمك نمر جواسيس بأخبار الحملة لاستغل هذه المعلومة، لكن قد أباد الحملة عن بكرة أبيها.

شئ آخر جدير بالذكر هو أن الحاكم المقيم في قِّري كانت مهمته الأساسية التأكد من ألا أحد من القادمين في القوافل من مصر مصاب بالجدري (ص 11). وقَّري أو أي مكان بالقرب منها كان محط القوافل التي تعبر صحراء البيوضة في منطقة دنقلا. لا يفوت المرء أن ينوه بحسن العلاقة التي كانت بين ملك سنار وملك الحبشة، المتضحة في الاحترام والمودة لملك الحبشة اللتين أظهرهما ملك سنار (ص 11). وذلك ما سهّل انسياب السفر والتجارة بين السودان والحبشة في ذلك الوقت، وهي حقيقة تاريخية معلومة لعل أقدم إشارة مباشرة لها هي تلك التي وردت في الكتاب المكتوب باليونانية، وترجمة

عنوانه بالعربية هي "دليل البحر الارتري البحر الأحمر"، في هذا الكتاب إشارة إلى مكان ما اسمه يشابه اسم سنار كان حلقة الوصل بين أكسوم في الحبشة وقلب أفريقيا . المعتقد أن هذا الكتاب كتب في القرن الأول الميلادي، وهو العصر الذهبي للسودان في الفترة المروية، في زمن الملك نتك أماني وزوجته أماني نوري، حيث نشطت التجارة بين السودان وأكسوم.

يكفي هذا القدر إن شاء الله تعالى، في التقديم لهذا الكتاب المهم لتاريخ السودان الوسيط، لكون صاحبه أقدم شاهد عيان على دولة الفونج الإسلامية.

وليطمئن القارئ بأن هذا الكتاب نال ما يستحقه من الترجمة ومراجعتها. فقد ترجم نصفه الأول حتى سنار الأستاذ خضر محمد سعيد. وراجع ما ترجمه الدكتور فضل إسماعيل علي حين كان رئيساً لقسم الترجمة والتعريب، ثم أكملَ الدكتور فضل الله الترجمة بترجمة ما تبقى من رحلة بونسيه إلى إثيوبيا . ثم تولت الدكتورة انتصار الزين صغيرون مراجعة ترجمة كل الكتاب مع التعليقات المناسبة منها، ولم يكن هناك من هو أنسب منها لتخصصها في الآثار الإسلامية ومعرفتها الوثيقة بتاريخ السودان الوسيط، الذي تقع فيه مملكة سنار الإسلامية. ورغم انشغالها بعمادة الآداب بجامعة الخرطوم، فإنها اضطلعت بهذه المهمة الشاقة.

لذا، ففي هذه الترجمة لبونسيه ما ينبغي أن يطمئن القارئ عليها لقيام ثلاثة أشخاص بها، مشهود لهم بالتمكن في اللغة الإنجليزية. فالاستاذ خضر عمل بالترجمة في مكتب السكرتير الإداري في الحكم الثنائي قبل الاستقلال. والدكتور فضل الله متخصص بالدكتوراة في الترجمة، والدكتورة إنتصار صغيرون الزين متخصصة في الآثار الإسلامية، وكانت من قبل رئيسة لشعبة الآثار الإسلامية بجامعة الخرطوم. فليهنأ القارئ السوداني بهذا الكتاب. كما عليه التطلع لما ستزوده به إدارة البحوث والتخطيط والتنمية بجامعة السودان السودان المفتوحة، حسب برامجها المرسومة، من ترجمات لكتب مهمة تتناول فترات مهمة كتب عنها شهود عيان لا يعرف أعمالهم أحد، أو القليل. ندعو الله أن يجعل هذا الكتاب مقبولاً ومرضياً عنه لما بذل فيه من جهد، وأن يجزي كل ماكانت له يد فيه خير الجزاء. آمين

البروفسير عبدالقادر محمود عبدالله
سابقاً أول مدير لإدارة
البحوث والتخطيط والتنمية،
ومستشار المدير للبحوث وتنمية
المجتمع بجامعة السودان المفتوحة.

رحلة إلى أثيوبيا
في سنوات 1698ـ 1699ـ 1670

سافرت من القاهرة عاصمة مصر في يوم 10 يونيو[1] سنة 1698 برفقة أحد موظفي[2] أمبراطور أثيوبيا؛ يدعى حاج علي والأب (دي برفدنت De Brevedent)، رسول اليسوع. سافرت على النيل من "بولاق"، وهي على بعد نصف فرسخ (Half league) من المدينة. لضحالة المياه وعدم مهارة الملاحين، وصلنا (المنوفلو) (Manoflou)[3] بعد خمسة عشر يوماً، وعندما تكون المياه مرتفعة، والرياح معتدلة تستغرق الرحلة خمسة أيام. وهي من مدن الوجه القبلي لمصر، وهي مشهورة بتجارة أقمشة الكتان. ولقد وضع الباب العالي هناك، حامية عسكرية قوامها (500) جندي أنكشرية[4] و(200) من الفرسان، لمنع رحلات الأعراب المتكررة[5] الذين ينهبون نواحي ذلك القطر.

تلتقي القوافل القادمة من سنار ومن أثيوبيا في (ابناه)[6] على بعد نصف فرسخ من "منوفلو" التي عسكرنا فيها في انتظار تجمع القوافل. وبقينا في الخيام لأكثر من ثلاثة أشهر نعاني من شدة الحرارة التي لم يتعود عليها الأوروبيون.

1 بونسي كفرنسي إستخدم التقويم المعدل وعليه فإن تواريخه تتقدم على التاريخ الإنجليزي بعشرة أيام.
2 كلمة officer ليست مقصورة على "ضابط" فقد تعني موظف.
3 منفلوط. تقع على الشاطيء الغربي للنيل وعلى بعد 215 ميلاً جنوب القاهرة و17 ميلاً شمال أسيوط.
4 كتيبة فرسان تركية.
5 غزوة أو غارة.
6 لم يتم التعرف على المكان- تقع على نصف فرسخ جنوب منفلوط- يقصد (بنها) "المترجم".

تبدأ حرارة الشمس من العاشرة صباحاً حتى المساء، مما جعل التنفس صعباً جداً.

بعد أن اشترينا الجمال، وأعددنا أنفسنا لعبور صحراء ليبيا، غادرنا ذلك المكان البغيض في يوم 24 سبتمبر الساعة الثالثة ظهراً. عسكرنا في منطقة تسمى القنطرة (Cantara)[1] على بعد فرسخ ونصف على الضفة الشرقية للنيل، وبقينا فيها عدة أيام في انتظار التجار القادمين من (جرجي[2]– Girgi) ومن (أسيوط– Asyut).

دعاني أحد أقرباء ملك سنار لزيارة أسيوط، وأحضر لي حصاناً عربياً، فعبرت النيل على كبري كبير مبني من الحجر[3]، وأظنه الكبري الوحيد على النهر. وصلت المدينة في أربع ساعات. لقد شاهدت مُدرجاً عظيماً وبعض المدافن القديمة من آثار قدماء الرومان. مدينة أسيوط محاطة بحدائق غناء، وبأشجار النخيل التي تثمر أجود أنواع التمور في مصر[4].

عند عودتي وجدت كل الرفاق اجتمعوا؛ فواصلنا السير يوم 2 أكتوبر في الصباح الباكر، ومنذ ذلك اليوم دخلنا في صحراء مخيفة. هذه الصحراء خطرة جداً، لأن الرمال المتحركة تحملها أقل ريح والتي تحجب الرؤيا. وفي بعض الاحيان تدفن المسافرين! وآخرون أو على الأقل يضلون الطريق تماماً. هنالك

1 قال بروس (المجلد الثالث ص 488) إن بونسيه قد أخطأ فيما يخص النهر الذي عبره. الكلمة قنطرة تمثل في اللغة العربية كلمة جسر وتشير للمبنى المذكور أدناه. هذا الجسر – مازال موجوداً – يعبر قناة وليس النهر الرئيسي. هذه القناة انشئت لتوصل الماء من النيل للمدينة القديمة قبل أسيوط.

2 جرجا - مدينة على النيل 90 ميلاً جنوب أسيوط ومازالت مدينة ذات أهمية.

3 حجر منحوت.

4 أسيوط: أكبر مدينة في الوجه (القبلي لمصر) "مصر العليا" ومازالت مركز تجارياً مهماً. والأثار التي ذكرت عبارة عن آثار مدينة أسيو (isiu) وهو المكان الذي قامت عليه مدينه أسيوط.

تنظيم دقيق لخط سير القوافل، بالإضافة لوجود رئيس لفض المنازعات والمشاكل؛ هنالك مرشدون يسيرون أمام القوافل، ويحددون موعدي التحرك والتوقف بطرق الطبول (نغمات تعني المسير، وأخرى تعنى الوقوف). يبدأون السير قبل ثلاث أو أربع ساعات قبل الفجر. وفي هذا الوقت يجب أن تكون جميع الجمال وحيوانات الحمل جاهزة للتحرك، ليس هنالك مجال للتخلف أو تغيير خط السير إلا لسبب أو خطر ظاهر. للمرشدين خبرة عالية بمعرفة الطرق، رغم عدم وجود أي معالم أرضية على تلك الرمال، فهم لا يحيدون أو يضلون الطريق مهما كانت الظروف. عند منتصف النهار، يقفون للراحة نصف ساعة دون أن ينزلوا رحلهم من الجمال، ثم يواصلون سيرهم بالليل. لثلاث أو أربع ساعات. وعندما يعسكرون يحافظون على النظام والترتيب نفسهما الذي بدأت به القافلة، فلا يحدث نزاع وسط المسافرين.

95.أ في يوم 26 أكتوبر وصلنا (حلاوي) "Helaue". وهي مدينة كبيرة وجميلة، وهي آخر حدود سلطة الباب العالي، وبها حامية عسكرية مكونة من (500) جندي انكشارية، و(300) ضابط صف (يوزباشي) تحت إمرة ضابط (كاشف– Kashif)[1]. حلاوة[2] جميلة وحلوة حقاً، وتستحق ذلك الاسم. بها حدائق

1 كاشف – موظف إداري (المراجع).

2 كلمة تعنى الحلاوة. المكان غير موجود في الخرط الحديثة ولكنها معلمة في خريطة بروس بأسم (الواحة) 26 درجة شمالاً. ومن الواضح أنها في واحة الخارجة. ذكر لودلف (ص 395) الأماكن الآتية باعتبارها مواقع توقف للقوافل من أسبوط لسنار: واشا (washa) هل تعني واحدة ؟؟ (3 أيام)، مكس (يومان)، الشب (3 أيام)، سليم (3 أيام)، مشّو (5 أيام)، دنقلا (أيام)، قشابي (3 أيام)، كورتي (3 أيام)، ترير (3 أيام)، قري (يوم)، حلفايا (يوم)، أربجي (3 أيام)، سنار (4 أيام). من سنار إلى تشلقا في أثيوبيا تأخذ الرحلة أسبوعان. أضاف لودلف بأن القافلة تستغرق 3 شهور لتغطي المسافة بين واشا وسنار لأنها تنتظر في بعض المناطق من أجل التجارة. حسب لوقراند 35 يوم للرحلة من سنار إلى قوندار.

كثيرة، وكمية ضخمة من النخيل الباسق، ودائم الخضرة؛ يوجد الحنظل[1] هنا ومساحات ضخمة، بها "السنة" (السنة مكة- Senna)[2] الذي ينمو في المشأب حيث يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أقدام. له تقدير عالٍ في أوروبا، وليس له استخدام في هذه البلاد التي ينمو فيها لمواطنيها.

سكان حلوة عادة يتداوون من المرض بجذور (الإيزولا- Ezula)[3]، والتي يغمسونها في اللبن لمدة يومين بعد تصفيتها، رغم شدة مفعولها يستخدمونها ويوصون بها لغيرهم، وتنمو داخل كرة، في شكل بيضاوي، مليئة بخيوط قطنية، يصنع الأهالي منها أقمشة جميلة.

أمضينا أربعة أيام في (حلاوة) للراحة، وأخذنا الماء وبعض المؤن الغذائية لأننا سوف نعبر صحراء قاحلة لا توجد فيها مجارٍ مائية ولا ينابيع. الحرارة فيها شديدة للغاية، والرمال في هذه الصحراء محرقة، حيت لا يستطيع المرء أن يسير عليها حافي القدمين. مع ذلك فالليالي شديدة البرودة، وتسبب كثيراً من المتاعب للذين لا يحتاطون لهذا الأمر.

بعد مسيرة يومين وصلنا (النطرون)[4] المقصود وادي النطرون المعروف وهي منطقة مليئة (بملح النطرون). وبعد ثلاثة أيام وصلنا سليمة[5] – التي أخذنا منها ماءً يكفينا لمدة خمسة أيام، من نبع في وسط الصحراء.

---

1 الحنظل أو البرتقال المُر، وهو ثمار قرع يستخدم كمُسهل.

2 السنا هي فصيلة من القرفة الصينية يستخدم اوراقه كمّسهل أو ملين. وهذه ما زالت من مواد التصدير عبر موانئ البحر الأحمر.

3 الخصائص التي قدمت ليست كافية لتعريف شجرة الإيزول. يخمن لوكمان بأن المقصود هو لبن النباتات الشوكية.

4 الشب: تبعد 60 ميلاً شمال سليمة (والمقصود وادي النطرون (المراجع)).

5 سليمة: واحة سليمة.

تلك الغفار الخالية التي لا توجد فيها طيور، ولا وحوش، ولا أعشاب، ولا مجرد ذبابة واحدة، ولا يرى فيها أي شيء سوى كثبان الرمل، ورفات وهياكل الجمال! هذه الحيوانات تستمر لمدة ستة أيام دون أكل أو شرب، والتي لم أكن لأصدقها لولا ما لمسته عملياً وحدث أمامي.

والأكثر دهشة من ذلك ما أكده لي رجل محترم، وهو (أخو بطريق أثيوبيا)- وكان رفيقاً لنا في هذه الرحلة. إنه قام برحلتين من سليمة إلى السودان عن طريق أرض الزنوج- وكانت تمتد إلى (40) يوماً عبر الصحراء- فلم يرى جمال القافلة تأكل أو تشرب طيلة هذه المدة. فإن راحة (3 – 4) ساعات في الليلة تكفيهم مؤنة الأكل الذي يجب ألا تقدمه لهم، إلا إذا أعطيتهما ماءً قبل الأكل، وإلا يحدث انفجار للمعدة والأمعاء.

تقع مملكة السودان غرب مملكة سنار، وتجار مصر العليا يعملون هنا في تجارة الذهب والرقيق. ملوك سنار والسودان في حروب دائمة، والبغال والحمير التي يستعملونها لعبور الصحاري يعطونها قليلاً من الماء يومياً.

في اليوم السادس والعشرين من أكتوبر وصلنا (مشّو- Machou)[1]، وهي مدينة حسنة كبيرة على الشاطئ الشرقي للنيل. النهر هنا يُكوِّن جزيرتين مليئتين بالنخيل (والسنة مكة) والحنظل- "Coloquintida".

تتبع مشّو لمملكة الفونج[2]، وهي المدينة الوحيدة بعد حلاوة، وتتبع لملك سنار، وهي أول مقر (للبرابرة- Barbarins)[1].

---

1 مشّو: يوضحها بروس على خرطته بأنها على غرب النيل وليس شرقه على خط عرض 21. ويوضحها بوركهارد أنها على مقربة من جزيرة أرقو (ص 163).

2 مملكة سنار: تأسست عام 1484 بواسطة قبيلة زنجية تعرف عند البرتغاليين بالفونجين.

الأرباب[2] – أو حاكم المنطقة، وبعد أن فهم أن إمبراطور أثيوبيا داعينا لزيارته، دعانا للذهاب له في مقر سكنه في "أرقو"، وهي على الضفة الأخرى للنيل بعكس "مشّو". فذهبنا على ظهر مركب؛ فاستقبلنا بكل ترحاب لمدة يومين– كانت بمثابة راحة لنا في وعثاء السفر. إن كبير ضباط الجمارك– وهو ابن ملك دنقلا، ويسكن أيضاً في "أرقو". هذا الأمير لا يظهر في الأماكن العامة إلا إذا كان راكباً فرساً. معلقة عليه (200) جرسٍ صغيرٍ من النحاس، وبحراسة عشرين فرداً من حملة بندقية المسكيت "Musketeers" ومئتين من الجنود المسلحين بالرماح والسيوف.

عندما جاء لزيارة مخيماتنا قدمت له القهوة، ودفعت لهم العوائد والجمركية (عبارة عن صابون وأقمشة). دعانا للعشاء في اليوم التالي، وذهبنا له في الميعاد المحدد. له قصر واسع مبني من الطوب الأخضر. حوائطه عالية جداً، وبها أبراجٌ عالية، وبدون أي فتحات لعدم استعمال مدافع في ذلك القطر، فقط بنادق المسكيت.

بعد أن أمضينا ثمانية أيام في "مشّو" وغادرناها في الرابع من نوفمبر ثم وصلنا إلى دنقلا في يوم (13) من الشهر نفسه. كل القرى التي مررنا عليها – وحتى سنار– جميلة ولا بأس بها؛ إلا أنه لا يزيد عرضها عن فرسخ – ومن خلفها الصحاري المخيفة.

---

1 ويعرف النوبة لدى العرب المصريين باسم البرابرة.

2 بروس تحدث عن الأرباب أو (الزعيم)، ويتهجنها دى برفدنث (أباب)

يجرى النيل في تعاريج بين هذه السهول الجميلة. الشواطئ عالية جداً لدرجة أن النهر لا يعلوها في موسم الفيضان. فلا يخصب الأرض هنا – كما يحدث في مصر، لولا كد ومثابرة ومجهودات أهلها؛ علماً بانه نادراً في هذه المناطق ماتهطل الأمطار، فهم يهتمون عن طريق عجلات تقودها الثيران، والتي ترفع كميات من المياه إلى وسط أراضيهم في آبار[1]، ومنها تؤخذ المياه لري الأراضي. ولولا هذه الطريقة تصبح جرداء غير مثمرة، بل تروى المزارع "بالسواقي" التي تزيد عجلاتها الأبقار بطريقة عجيبة ومضنية– حيث ترفع المياه من النهر أو من (حافظات كبيرة (مترات). وبدون هذه الطريقة، سوف تبقى الأراضي "بوراً " غير مستثمرة.

ليس للفضة استخدام في هذه البلاد في المعاملات التجارية، بل تُجرى عن طريق تبادل السلع، كما كان سائداً في العصور القديمة المتخلفة– كالفلفل وبذور اليانسون والشمار[2] والقرنفل والشورقة Chourga "وهي صدف صُبغ باللون الأزرق" والــ Spica من فرنسا، والمحلب[3] من مصر وغيرها من الأشياء المشابهة التي يشتريها المسافرون طالما وجدوا هذه السانحة. كما يشتري المسافرون ما يلزمهم من السلع، وهم لايأكلون غير الذرة[4]، وهي حبة صغيرة مستديرة يستفيدون منها في صناعة نوع من البيرة الكثيفة سيئة الطعم. وبما أنها تصبح ردئية إذا حفظت، إلا أنهم مجبرون على جعلها طازجة كل ساعة. الرجل

1 هذه الآبار تعمل خصيصاً لهذا الغرض.
2 الشمار وهو من الثمار ذات الزيوت الطيارة يستخدم كنكهة (المراجع).
3 محلب: حب ذو رئحة قوية.
4 الذرة والدخن والصمغ العربي.

الذي يملك قُوته من الذرة، وله أناءٌ (قرعة) مملوءة بهذا المشروب الرديء (الذي يشربونه حتى يغيبوا عن الوعي) يملكه الشعور بالسعادة والبهجة. بالقليل من هذه التغذية، فإن الناس هنا يتمتعون بصحة جيدة، وهم أكثر وقوةً وضخامةً من الأوربيين. منازلهم مبنية باللبن ومسقوفة بقصب الذرة، أما خيولهم رائعة الشكل، وتصلح للعرض في أحد المعارض، وسروجها[1] عالية في مقدمتها وفي مؤخرتها، وهى متعبة للفرس.

الأعيان من الرجال يسيرون ورؤوسهم حافية، ويضفرون شعرهم بطريقة مقبولة. من عاداتهم الشائعة، يلبسون صديري بدون أكمام. ولا يرتدون شيئاً في أرجلهم ولا أقدامهم، عدا نصل يربط بسيور. أما عامة الناس، فيلتحفون بقطعة من القماش يلفونها حول أجسامهم بمائة طريقة. الأطفال عادةً شبه "عراة الأجسام" كل الرجال يحملون حراباً (lances) في كل الأوقات وقطعة الحديد معكوفة في نهايتها وبعضها دقيق جداً. والذين يحملون السيوف يعلقونها على أكتافهم اليسرى. اليمين القاموس، والكفرمن السمات العامة لهؤلاء القوم الأغبياء. كما وأنهم على درجةٍ من الفسق، لا تواضع ولا كياسة ولا دين. ومع أنهم يتخذون الدين الإسلامى شعاراً وظيفياً (formulary of profession)، فإنهم لا يعرفون أكثر من صيغ العقيدة، والتي يكررونها في كل المناسبات. والمؤلم جداً جعل الأب (برفندت) (fr. Brevedent) المرافق لي في الرحلة، يزرف الدموع من عينه، لأن هذا القطر كان قبل وقت قصير يدين بالمسيحية، ولم يتخلوا عنها لعدم الإيمان بها- بل لعدم وجود شخص له حماس كافٍ يكرس

1 السرج: نوع متعب للذي يمتطي الجواد والجواد نفسه.

نفسه لتعليم هذه الأمة المهجورة. خاصة ونحن عن طريق سيرنا لاحظنا كثيراً من المعابد والكنائس خربة- وشبية بالآثار البالية!

قمنا برحلة[1] قصيرة من مشّو إلى دنقلا للتموين والتجديد بعد السفريات الطويلة بين الصحاري. انتشر مرض الطاعون من هذا القطر قبل أقل من عامين، وقضى على معظم السكان. وقد ظهر هذا المرض في القاهرة سنة 1696 عندما كنت بها عندما تطوعت لمكافحته، حين علمت أنه كان ضحاياه يومياً عشر آلآف شخصٍ. هذا الوباء كان منتشراً في كل أنحاء الوجه القبلي المصري وبلاد (البرابرة)؛ والمقاطعات التي كانت خصبة من قبل، تركت بوراً وهجرت تماماً. عندما لاحت لنا مشارف مدينة دنقلا، ذهب رئيس القافلة للملك للأخذ تصريح **له** ولصحبه للدخول في المدينة، والذي أُعطي له بطيب خاطر، وكنا في ذلك **الوقت** ننتظر من قرب من ضواحي المدينة. وكنا منتظرين في احدى قرى المدينة. ثم عبرنا النهر على مركب كبير أعدّه الأمير لراحة المواطنين بالمجان- لكن التجار يدفعون رسوم ترحيل.

تقع مدينة دنقلا[2] على الشاطئ الشرقى للنيل على منحدر جبل رملي (قوز). منازلها رديئة، وشوارعها شبه مهجورة، تملؤها أكوام الرمال الصحراوية، وتمر بها أحياناً بعض السيول المنحدرة من الجبال، وتقع القلعة وسط المدينة، وهي واسعةً جداً؛ وبها كمية كبيرة من التحصينات لا أهمية لها.

---

1 ترجمة لوكمان: (الشفر برفق) شئ مفضل استغرقت الرحلة تسعة أيام بدلاً عن خمسة أيام.
2 دنقلا: بالطبع ليست دنقلا الحالية ولكن دنقلا العجوز، التي تقع على بعد 75 ميلاً إلى الجنوب الشرقي.

بداخلها الأعراب أصحاب البوادى المنتشرة في المنطقة، والتي يرعون عليها مواشيهم، بعد دفع رسوم معينة للملك أو ملك دنقلا.

كان لنا شرف الأكل عدة مرات مع الملك[1]، ولكن على سفرة منفصلة. عند لقائنا به كان يلبس جلبابا من الحرير الأخضر، ومعه عددٌ كبيرٌ من الحرّاس، من كانوا قريبين منه يحملون سيوفاً طويلة في أغمادها، والآخرون من الخارج يحملون رماحاً قصيرة. لقد زارنا الأمير في خيامنا وقد أعطيته بعض الأدوية لعلاجه، وعليه فقد طلب أن أبقى في بلاطه، ولكنه تراجع عندما علم بأننا على موعد مع إمبراطور أثيوبيا. الملكية عندهم وراثية ولكنهم يدفعون ضريبة لملك سنار.

غادرنا دنقلا يوم 6 يناير 1699، وبعد أربعة أيام دخلنا في مملكة سنار. فالتقينا بأرباب[2] إبراهيم (وهو أخو رئيس وزراء الملك) في الحدود. فأكرمنا، فكما تكفل بدفع كل مصروفاتنا حتى كورتي[3]، مدينة كبيرة على النيل، إلى حيث رافقنا إلى أن وصلنا في يوم 13 يناير. فالاهالى الذين يسكنون وراء كورتي وبعيداً عن النيل ثائرون ضد ملك سنار؛ كما وأنهم يداهمون القوافل التي تمر بمناطقهم وينهبونها. فقد أجبرت القافلة على الابتعاد عن شواطئ النيل، وتوجيه الرحلة من الجنوب والغرب لتدخل صحراء بيوضة الكبرى. التي لا يمكن

1 جاء اسمه في النسخة الفرنسية، إن كلمة (مَك أو ملك دنقلا يدعى أحمد). هذا الاسم مشتق من الكلمة العربية (ملكية).

2 يسميه (دي برفندت) "الشيخ"- (شيخ قنديل).

3 تقع على الضفه اليسرى للنيل، خمسين ميلاً شرق دنقلا العجوز والخرطة التي وضعها (بيركها رد) عن النوبة، توضح أن (بونسيه) تحرك من هنا إلى قندار ومن قندار إلى مصوع. ولكن الرسام لم يكن لديه سوى روايات بونسيه والنتيجة محبطة.

اختراقها إلا في خمسة أيام مهما أسرعوا. هذه الصحراء ليست مخيفة أو مقفرة كتلك الصحارى في ليبيا التي لا يوجد فيها شيء سوى الرمال. ولكن في هذه البقاع كنا نجد هنا وهناك الحشائش والاشجار.

بعد أن اجتزنا هذه المنطقة، التقينا مرة أخرى مع النيل في (دريرا)[1]، وهي قرية معتبرة على مسافة (60) ميلاً شمال الخرطوم. وقد مكثنا بها يومين للراحة. وهى قرية وافرة الخيرات، ولهذا يسميها أهلها (بلاد الله)[2].

تركنا القرية، وقد واصلنا السير يوم 26، ووجهنا مسارنا نحو الغرب. لاتوجد قرى على الطريق، ولكن بعض الأهالي يسكنون في الخيام، ويقدمون الطعام للمسافرين. وبعد مسيرة أيام التقينا بالنيل بالقرب من (قرِّي)[3]، وهي مقر الحاكم، ومهمته الرئيسة فحص ما إذا كانت القوافل القادمة من مصر ناقلة عدوى مرض الجدري الكاذب الذي لا يقل خطورة عن مرض الطاعون في أوروبا. ولقد استقبلنا الحاكم بكل حفاوة، إجلالاً للعرش الأثيوبي، وبالنسبة لاحترامهم للأمبراطور الأثيوبي؛ فقد عفانا من دفع رسوم الفحص في (المحجر الصحي) التي عادة ما يتحصلونها عند معبر النيل.

من العادة كل قافلة تعبر النيل بمفردها، فإنهم يضعون الرجال وبضائعهم في المركب، ويربطون الحيوانات. فيربطون رؤوسها وبطونها بحبال حسب

1 درريرا (Derrera) قرية على بعد 60 ميلاً شمال الخرطوم غرب النيل.

2 أوضح بروس بأن: الأعراب الذين هذه الصحاري يسمون الأمطار رحمة الله – والمنطقة التي تنزل عليها الرحمة بلاد الله (المجلدiii، صفحة 492).

3 ذكرها دى برفدنت باسم (قولري) بينما ذكرها لودولف باسم (قري). وتضعها خريطة بروس في خط 16° شمال فويق ملتقى النيل الأبيض والأزرق.

اتجاه المركب لتعوم الحيوانات بمعاناة شديدة، وبعضها يموت؛ بالرغم من ضيق مجرى النهر، إلا أنه عميق وسريع التيار.

بدأنا السفر من قرّي في أول فبراير ونزلنا في ألفا[1]، وهي قرية كبيرة، مبانيها من الحجارة المربعة، ورجالها طوال ووجهاء.

بعد أن كان اتجاه خط سيرنا[2] نحو الشمال الشرقي لتفادي تعاريج النيل، مررنا على قُرى (العيلفون)، كوترام (كوتران)، وكامين (الكاملين ؟). ثم عبرنا جزيرة كبيرة– لم نهتم بها– إذا لم تكن موضحة أو موضوعة على خرائطنا؛ فوصلنا إلى أربجي[3] وهي مليئة بالمواد الغذائية حيث انعشنا أنفسنا.

الأيام التالية قضيناها مروراً بين غابات[4] المناطق الحارة، وهي أشجار شوكية طويلة، ولها زهور صفراء وزرقاء، ولها رائحة طيبة.

هذه الغابات مليئة بطيور صغيرة خضراء اللون، وبدجاج[5] الوادي، وبطيور أخرى كثيرة غير معروفة في أوروبا. وبعد هذه الغابات دخلنا في سهول مثمرة وكثيرة الخيرات.

بعد أن استمرينا في سيرنا لبعض الوقت لاخت لنا معالم مدينة سنار[6] التي سرنا جمال موقعها. هذه المدينة التي تبلغ مساحتها حوالي فرسخ ونصف،

1 يبدو أنها الحلفايا فوق الخرطوم قليلاً.
2 بحسب بروس (المجلد iii، ص 492)، هذا خطأ والصحيح (جنوب غرب).
3 بروس (هربجي) ازنجي ووضعها في ملتقى النيل الأزرق والدندر.
4 صمغ السنط، حيث أن السنط ينمو بكثرة في الحبشة، وهو مصدر الصمغ العربي.
5 بالفرنسى (gelinottes) (دجاح الأمراج) ترجمها لوكمان بـ (wood-hens) (دجاج الأمراج).
6 ذكر دى برفدنت بأنهم وصلوا في يوم الثاني عشر من فبراير. تقع سنار على النيل الأزرق، خط طول 34 13 شمال. وعليه فأن ما ذكره اليسوعي كان خطأ موقع المدينة القديمة أيضاً على النهر ويبعد عدة أميال من النهر تجاه الغرب. وذكر هذا الوصف كرمب (ص 285) 1705 – 1701. يبدو أنه يقصد الأواني الفخارية.

يسكنها عدد كبير من السكان إلا أنها قذرة جداً، وإدارتها عشوائية؛ ويبلغ عدد سكانها مائة ألف نسمة. وهي تقع على الضفة الغربية لنهر النيل، على خط عرض ثلاثة عشر وأربعة دقائق شمالاً (حسب رواية الأب برفدنت) في منتصف نهار يوم 21 مارس سنة 1699م. منازلها تتكون من طابق واحد فقط، ومبنية بطريقة رديئة جداً، ولكن سقوفها المسطحة مريحة جداً. أما في الضواحي فالمباني عبارة عن أكواخ مسقوفة بالحشائش أو القصب. قصر الملك مبني بالطوب الأخضر، ومحاط بسور عالٍ ولا يوجد فيه شيء منتظم. ولا ترى شيئاً سوى أكوامٍ من المباني مبعثرة هنا وهناك، وبغير أي تنظيم معماري ولا تنسيق بينها. أما صالات القصر بها أثاث فخم، ومفروشة بالبسط الوثيرة على غرار أرض الهلال الخصب.

في اليوم الثاني لوصولنا قُدِّمنا للملك؛ وكان من الواجب علينا أن نخلع أحذيتنا قبل الدخول عليه. وهذا نوع من الطقوس يجب على الأجانب أن يلتزموا بها، وهذا الالتزام نفسه يطبق على رعاياه. فأدخلنا مباشرة في قاعة واسعة، مزخرفة بقطع مربعة من الخزف المطعمة بألوان زاهية مختلفة على غرار القاشاني، وكان الحراس منتشرين حولها مسلحين بالرماح. وبعد أن مررنا على الصالة، طلب إلينا أن نقف عند مدخل صالة أخرى واسعة، اعتاد الملك أن يخاطب فيها السفراء.

هنالك حيينا الملك حسب تقاليد رعيته، فسجدنا وقبلنا الأرض ثلاث مرات. هذا الأمير عمره تسعة عشر عاماً، أسود اللون، ولكنه حسن الشكل، وعليه هيبة وسحنة الملوك، ولم يكن غليظ الشفاه أو أفطس الأنف؛ وليس بينه

وبين رعاياه أي شبه. لقد أُجلس على سرير فخم تحت مظلة واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، حسب طريقة أهل البلاد الشرقية؛ وجلس حوله عشرون رجلاً من كبار السن بطريقة أقل منزلة منه. وكان يرتدي عباءة طويلة مصنوعة من الحرير، ومُحَلية بقطع من الذهب، وحول عنقه شال من قماش قطن ناعم وعلى رأسه عمامة بيضاء. وكان كبار السن الذين يرافقونه بالوضع نفسه، بل أقل منه بعض الشيء في هندامهم.

عندما دخلنا الصالة الفسيحة لمقابلة الملك بعد أن قدمنا له الأمير ذاكراً أسماءنا، رحب الملك بزيارتنا له، ومُحيينا الأمير بالطريقة الأولى نفسها عندما دخلنا الصالة لأول مرة. وقدمنا له بعض الهدايا، عبارة عن أواني زجاجية من الكريستال، وبعض غرائب أروبا، وقبلها بكل ترحاب وبهجة.

ولقد واجهنا بأسئلة كثيرة توحي بذكاء وحب استطلاع خارق. فقد سألنا عن الغرض من زيارتنا لإمبراطور أثيوبيا، ويبدو أنه يكِن مشاعر طيبة واحترام لأمبراطور أثيوبيا. مكثنا معه ساعة، ثم أنصرفنا بعد أن أمر لنا بثلاثة أنواع من الإكراميات، أمر حراسه بأن يبقوا على حراستنا في أماكن السكن، وأرسل الينا آنية كبيرة مليئة بالزبدة والعسل، وزيادة على ذلك ثورين وخروفين.

هذا الأمير اعتاد أن يأخذ وجبتين في الأسبوع في منزله بالقرية التي تبعد عن المدينة بفرسخ واحد. وكان خط سيره كما يلي: المسيرة الأولى تتكون من حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة من الخيالة. بعدها يأتي الملك تحت حراسة المشاة والجنود الذين يرددون أناشيد المدح، ويقرعون الطبول بأنغام لطيفة بإيقاع "الطمبور".

يشتركن سبعمائة أو ثمانمائة من الفتيات والنساء في مسيرة الجنود الاستعراضية هذه، حاملات فوق رؤسهن سلالاً كبيرة مصنوعة من القش ومزخرفة بجميع ألوان الزهور المختلفة، ولها أغطية ذات شكل هرمي. هذه السلال مليئة بآنية نحاسية مطلية بالصفيح، ومليئة بالفواكه ولحوم مختلفة، كل هذه الأشياء توضع أمام الملك، ومن بعدها تقدم لأتباعه المرافقين له، وبعدها يأتي حوالي مئتين أو ثلاثمائة من الخيالة بالترتيب نفسه.

الملك الذي لايظهر أمام الجمهور إلا إذا كان وجهه مغطى بقطعة من النسيج الحريري الشفاف المُحَلى بألوان[1] مختلفة؛ يجلس على منضدة عند وصوله ليوزع الجوائز على النبلاء والأعيان، كما يشاركهم التدرب على الرماية بالبندقية التي لم يكونوا قد جادوا التدريب عليها من قبل. بعد الانتهاء من مهمة التدريب هذه، يعودون بعدها في المساء إلى المدينة. متبعين الطقوس والمراسم نفسها التي خرجوا عليها في الصباح من المدينة؛ وأنهم اعتادوا على اتباع هذه المراسم الاحتفالية كل يوم أربعاء وسبت من كل أسبوع. بقية الأيام الأخرى يعقد فيها مجلسه القضائي للنظر في شكاوي الجمهور من الصباح حتى المساء، ولا يترك أي قضية دون النظر فيها بدون فصل وحكم. وهم لا يسترسلون في الإجراءات والحيثيات، ولا يبحثون عن الدوافع والأسباب التي أدت إلى وقوع الحدث. فعندما يقبض على الجاني، يقدم إلى القاضي لاستجوابه، ثم الحكم عليه بالإعدام عندما تثبت إدانته، وينفذ الحكم في الحال على الجاني. فيلقى الجاني

1 التقليد نفسه كان موجوداً شايعاً في الحبشة. نجد (الفارز) أشار إلى ذلك التقليد (ص 2002) عندما تقابل مع النجاشي وذكر قائلاً: (بأن هنالك قطعة من النسيج الحريرى الرقيق (التّفتة) بضعه النجاشي أمام وجهه والذي يغطى فمه ولحيته ومن حين لآخر، هنالك ممارسة مشابهة لوحظت في الحبشة قديماً.

على الأرض، ويضرب على صدره بهراوات غليظة حتى يفارق الحياة. أثناء وجودنا في سنار، شاهدنا حالة إعدام من هذا النوع طبقت على أثيوبي يدعى (جوزيف Joseph) ترك المسيحية واعتنق الدين الإسلامي[1].

بعد تنفيذ الإعدام بتلك الصورة الرهيبة، أحضروا إليّ فتاة تركية صغيرة- تبلغ من العمر حوالي خمسة أو ستة أشهر لتعالج من سقم. ولما كانت الفتاة ميئوس من حياتها، فقد قام الأب برفدنت بتمسيحها مدعياً أنه يقوم بإعطائها بعض العلاج. هذه الطفلة سعيدة عند موتها، لأنها تحصلت على تعمير مقدس، ويعتبر هذا عوضاً لما لاقاه ذلك الأثيوبي سيء الحظ.

وقد غمرت البهجة والغبطة الأب (برفدنت)، لأنه فتح أبواب الجنة لهذه الروح. وبالرغم من أنه لم يفعل سوءاً في حياته ولكنه يعتبر أن هذا تعويضٌ له عن كل المتاعب والآلام التي مرّ بها في رحلته.

كل الأشياء في سنار رخيصة جداً. فالجمل يباع بسبعة أو ثمانية فرنك[2]؛ والثور بخمسين بنساً؛ والخروف بخمسة عشر بنساً، والدجاجة ببنس واحد. المواطنون هنالك لا يطيقون خبز القمح، ولكنهم يقدمونه للأجانب، بل هم يعتمدون على الذرة في غذائهم- وهو عبارة عن حبيبات صغيرة كما ذكرت آنفاً. إنه جيد عندما يكون طازجاً، وتتغير رائحته وطعمه إذا مكث أكثر من يوم، وهي نوع من الكيك الكبير في سمك الكراون[3].

---

1 لهذا الحدث انظر رسالة بونسى ص 168.
2 الفرنك يساوي عشرين فلساً.
3 الكراون الفرنسي قطعة نقدية فضية بريطانية تساوي 5 شلنات أو قطع ورق 15×20 بوصة.

موارد هذا القطر هي: العاج- الفواكه- التبغ- والتبر (الترب الذي يستخرج منه الذهب) وأشياء أخرى.

لهم سوق على مدى أيام الأسبوع في مساحة واسعة في وسط المدينة يعرضون فيها كل أنواع السلع بمختلف أنواعها. كما لهم سوق آخر أمام قصر الملك، وفي هذا السوق يعرضون الرقيق للبيع، جالسين القرفصاء على الأرض، واضعين الرجال والصبيان على جنب، والنساء والفتيات على الجانب الآخر. عادة يباع الشخص الصحيح القوى بعشرة[1] (كراون Crown). ولهذا فقد تشجع التجار المصريون ليشتروا عدداً كبيراً من الرقيق كل عام.

كانت أصغر وحدة من العملة تستعملها تلك الدولة تعادل قيمتها (الدوبل الفرنسي Double)[2]. وهي قطعة من الحديد على شكل صليب[3] T. Antony القديس أنطوني أما الفضة (الفضة العربية) كانت تأتي من تركيا، وهي عبارة عن قطعة فضية أقل من Derrier (الدينار!). وزيادة على هذه كانوا يستعملون العملات الإسبانية- الريالات[4] والقروش (Reals+ Piasters)، وهي عملة دائرية الشكل- أما ذات الشكل الرباعي فليست متداولة في التجارة، والقرش يعادل أربعة فرنكات (Franc)[5].

---

1 الريال الفرنسي القديم يساوي ما بين الأربعة إلى الستة فلوس (تافرنيّه، المجلد i، ص 327).
2 الدوبل (double) يعادل سدسي الفلس.
3 يشكل بوضع قطعة حديد أفقية على أخرى رأسية مكونة الحرف T.
4 الفلوس الفرنسية المختومة: أوضح لو كان بأن الفلس المختوم من قبل الحكومة الفرنسية قيمته زائدة.
5 النص الفرنسي (فرنكات). القرش الإسباني يساوي ما بين أربعة إلى ستة الفلوس (تافرنيّه، المجلد i، ص 328).

في سنار[1] درجة الحرارة عالية بشكل لا يطاق، حتى وأن الشخص يجد صعوبة قاسية للتنفس خلال ساعات النهار. تبدأ هذه الحالة في يناير، وتنتهي في آخر أبريل من كل عام. يعقب هذا هطول أمطار غزيرة لمدة ثلاثة أشهر. ويكون الجو ملوثاً بالوبائيات التي تسبب الموت للإنسان والحيوان، ويعزى هذا إلى جهل وغذارة السكان الذين لا يهتمون بعمل مجاري لتصريف المياه، بل يتركونها راكدة ومتعفنة تطلق روائح وأبخرة ملوثة للجو.

هؤلاء القوم يتمتعون بذكاء فطري، وفي الوقت نفسه خداعون وينتمون إلى الإسلام. عندما يلتقون بمسيحي في الطريق؛ فلا يألون جهداً في أن يرددوا هتافاتهم المعهودة، وهي "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

البراندي[2] والخمور محرمة عليهم، ولكنهم يتعاطونها سراً. أما شرابهم المعتاد، فهو نوع من البيرة، مثل المستعمل في دنقلا، ويسمونه (بوزا)[3]، وهو شراب ثقيل المشرب، يصنعونة من الذرة بعد تحميصها على النار، ثم يضعونها في ماء بارد لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم يشربونه بعد ذلك، كذلك يشربون القهوة بشراهة؛ رغم أنها لاتستعمل في أثيوبيا.

نساء الطبقات الراقية يرتدين جلابيب بأكمام طويلة جداً حتى تصل الأرض، مصنوعة من الحرير أو من قماش قطني ناعم، شعر رؤوسهن مضفر ومسترسل، عليه حلقات من الفضة أو النحاس، أو الصفر، والعاج، أو حبيبات

---

1 سنار: يعني السم والنار (سم- نار) (حايشة النص الفرنسي). ويقول البرفسور أربرى بأن هذا الاشتقاق من الكلمات العربية (سم ونار) يعتبر غريباً، وأن أصل الكلمة الحقيقي غير معروف.

2 بالفرنسية Hydromel. هذا الشراب وصف في صفحة 120. والميد معروف لأجدادنا بأنه يُخمر من العسل والماء، ويعطي نكهة بالبهارات.

3 بوزا: بالعربية المصرية بوزا.

الزجاج المزخرفة بألوان مختلفة. تنسق هذه الحلقات لتكون شكل التاج. الأيادي والأرجل والأذنين، وحتى الأنوف عليها تلك الحلقات المعدنية. كما وضعت أنواعاً مختلفة من الختم على أصابعهن، لايلبسن أي شيء على أرجلهن سوى قطعة نعل واحدة يربطنها بخيوط، أما النساء العاديات والفتيات، فلا يلبسن أي شيء سوى مايغطي من تحت السرة إلى الركبتين.

السلع التي تستوردها هذه المملكة؛ هي: البهارات، الورق- النحاس - الحديد[1] ومشتقاته- الأسلاك النحاسية- الأدوية البيضاء والصفراء- المحلب الفرنسي[2] (وهو حبوب؛ مثل الذرة تسحق ولها رائحة ذكية)، السلع التي ترد من البندقية "Venice"- (وهي أنواع كثيرة من الخرز الزجاجي بألوان مختلفة)، وأخيراً الكحل الأسود الذي يرغبه الكثير من أهل ذلك القطر، لأنه يضفي ذلك اللون الأسود على أعينهن وحواجبهن. كل هذه السلع لها أيضاً رواج في أثيوبيا، مع اختلاف، وهو أن الخرز الكبير الحجم مرغوب في سنار، والأقل حجماً في أكثر من أثيوبيا.

تجار سنار لهم تجارة واسعة مع الشرق. في مواسم رياح "المنسون" (monsoons) يبقون في سواكن على ساحل البحر الأحمر لاستخراج اللؤلؤ من تلك الأماكن، ومدينة سواكن متملكها هو الباب العاني. وينطلقون من هناك إلى مخا (moka) في الجزيرة العربية البعيدة، وتتبع لملك اليمن، ومن هناك يذهبون إلى سورات (surate)، حاملون إليها الذهب، "طيب الزباد"، وسن الفيل (العاج)

1 إذا كان هذا الصبغ المُكثف الأزرق فهو مكون من الزئبق وزهرة الكبريت وملح النشادر.
2 الكحل، الأثمد، والسع الاستخدام في الشرق – مشروح استخدامة في النص.

ويستوردون من هناك التوابل والسلع الإنديز (Indies) بلاد الهند الأخرى. وتستغرق هذه الرحلة مالا يقل عن عامين.

عندما يتوفى الملك، ينعقد المجلس الأعلى في سنار بطريقة بربرية مؤلمة لإصدار أمر بقطع رقاب إخوة الملك الذين سيعتلون العرش بعده. الأمير (Gorech)، قوريش الذي كان مخبأً حتى وفاة أخيه الملك، عند حاضنته، قد أنقذ من قسوة ذلك المجلس. فلقد أنقذه أحد إخوة ذلك الملك. ذلك الأمير كان في البلاط الأثيوبي، فظهر وأعلن أحقيته بحكم مؤهلاته العائلية الموروثة.

بعد أن مكثنا مع الملك في سنار لمدة ثلاثة أشهر، والذي أكرمنا فيها سمح لنا بمواصلة رحلتنا، فأرسل معنا من يحرسنا[1] حتى حدود مملكته- كما قام بدفع كل تكاليف الرحلة داخل حدود مملكته.

عبرنا النيل على جذع شجرة ضخمة في شكل قارب نهري مجوف. فارقنا النيل في يوم 12 مايو سنة 1699 وعسكرنا في قرية "باسبوش" (Basboch)، على بعد فرسخ (League) من مدينة سنار[2]، وهنالك مكثنا ثلاثة أيام، إلى أن تجمعت بقية قافلتنا؛ وفي مساء يوم 15 مايو بدأنا السير طول الليل إلى أن وصلنا "باكراس" (Bacras)، وهي بلدة كبيرة، عمدتها شيخ كبير يبلغ من العمر مائة وثلاثين سنة، فاضل ومضياف. ظهر لنا انه قوي البنية، ونشط كأنما عمره لايزيد عن الأربعين سنة، ولقد عمل مع خمسة من ملوك سنار. لقد زرناه في دارة فاستقبلنا ببشاشة وترحاب، وأخذ يسألنا عن أخبار أوربا. قدمنا

1 أضاف النص الفرنسي بأنه يدعى سكوري.

2 ذكر بروس بأنها تبعد حوالي أربعة أميال شمال سنار. كان الطريق الذي سلكه بونسه في هذه المنطقة شاق جداً. جزء من هذا الطريق موضح على خريطة بروس، ولكن يبدو من الواقع أنه سلك طريقاً آخر.

إليه هدية بسيطة، فأرسل إلينا بعض المؤن في خيامنا، إشعاراً على رضائه علينا.

استمرينا في رحلتنا إلى أن وصلنا "أبق" (A beg)؛ وهي قرية صغيرة يرثى لحالها- ليس بها شيء سوى أكواخ للرعاة، وفي اليوم التالي وصلنا قرية "بها" (Baha) بعد مسيرة عشرة ساعات دون انقطاع، وهي قرية تقع على أحد أذرع النيل الجافة. في اليوم التاسع عشر نزلنا على "دودار" (Dodar)، وهي غير جديرة بالاهتمام كسابقتها "بها" (Baha)؛ وفي اليوم التالي، وبعد مسيرة أربع ساعات وصلنا "ابرا" (Abra) وهي بلدة كبيرة. افتقدنا فيها جملين لم نعثر عليهما رغم الجهد الذي بذلناه في البحث عنهما. ثم سرنا إلى قرية "دي بريك" (De Brake)[1]، وبعد ذلك إلى قرية "بلبل" (Bulbul). ثم استأنفنا السفر في ريف جميل كثيف السكان إلى أن وصلنا إلى "قيسم" (Giesim) يوم خمسة وعشرين مايو. وهي مدينة جديرة بالاعتبار تقع على شاطئ النيل[2] في وسط غابة بها مختلف أنواع الأشجار؛ التي لم نرى أو نشاهد مثلها أبداً[3]، انها أشجار أطول من شجر البلوط "Oak" الذي تعرفه، وبعضها ضخم، إلى درجة أن تسعة رجال ممدودي الأيدي لايستطيعون الإحاطة بها. وأن أوراق تلك الأشجار شبيهة بأوراق البطيخ، وثمارها حامضة جداً. رأيت في "قيسيم" (Giesim) شجرة ضخمة من هذا النوع ومجوفة طبيعياً دون أي تدخل بشري. بها فتحة عبارة عن

1 ذكر هيوود (Heawood) بأن هذا المكان يقع على نهر الدندر.
2 يبدوا أن هذه المعلومة خاطئة، حيث ذكر بروس بأن قيسيم تقع على الضفة اليمن للدهر.
3 هذه هي أشجار التبلدي، تسمى ثمارها أحياناً بخبز القرود.

مدخل لغرفة يمكن أن تستوعب بداخلها خمسين رجلاً واقفين على أرجلهم بداخلها[1].

قد شاهدت نوعاً آخر من الشجر[2] ليس أضخم من شجر البلوط في طول الذي تحدثنا عنه، وثماره شبيهة بالبطيخ إلا أنه ليس بحجمه، بل أصغر حجماً، مقسم داخلياً في شكل خلايا، وأنه مليئ ببذور صفراء اللون، وتحتوي على مادة شبيهة ببذرة السكر؛ وهذه المادة بها بعض الحموضة، ولكنها مستساقة المذاق، رائحتها منعشة، مستطابة الطعم؛ عظيمة الفائدة في بلد بهذه الدرجة من حرارة الجو اللحاء قوي وسميك[3]. زهرة هذه الشجرة تتكون من خمس أوراق بيضاء، مثل الزنبق، وتثمر حبة تشبة الخشخاش، في هذا القطر نوع من الشجر يسمى "دليب" (Deleb)، وهي شجرة طويلة أشبه بالنخلة في طولها وشكلها وأوراقها تشبه المروحة لكنها عريضة؛ ثمرتها مستديرة مغطاة بقشور تحيط بشكل الكأس، صفراء عندما تنضج والقشرة سميكة جداً. ويكون مغلق على الجذع عند هبوب الرياح تترنح الاشجار وتحدث الثمار- عندما تصطدم ببعضها أصواتٌ مزعجة للغاية؛ وإذا سقطت إحدى هذه الثمار على رأس شخص، فإنه يموت لامحالة من جراء ذلك.

عندما تفتح الثمرة، وهو ليس بالأمر السهل، تكتشف مادة شبيهة بالعسل، محاطة بالياف غزيرة. توجد مادة أشبه ماتكون بالعسل بين ألياف غزيرة حول

---

1 أضاف النص الفرنسى بأنها تسمى (جولنج Gellingue) لم يتعرف عليها علماء النباتات الذين استعزت بهم الذين أستشيروا.

2 شجر الديب أو نخيل بالميرا.

3 يقصد شجرة التبلدي وثمار القنقليز.

النواة، لها رائحة زيت النخيل ولا أتذكر إني تعاطيت شيئأ أحلى وأشهى منها أبداً، بين هذه المادة تجد حبيبات صلبة لونها بني غامض، وهي بذور هذه الشجرة، بجانب الثمار التي تحدثت عنها لهذه الشجرة، فإنها تحمل أيضاً شيئاً أشبه بالفجل، مغطاة بقشرة من ثلاثة طبقات، والتي يجب أن تزيلها لتصل الثمرة التي هي بطعم الكستناء المحمص. هذه شجرة الدوم[1]، وهي تعرف بأنها الذكر بالنسبة لأنثى الدليب- وأن طولها نصف شجرة الدليب، ولكن أوراقها تساوي ضعف طول وعرض أوراق أشجار الدليب. ويصنعون من هذا الزعف سلاّت وحصائر وأشرعه (Sails) للسفن في البحر الأحمر. تنتج هذه الشجرة ثمار يبلغ طول الواحدة قدم، ومغطاة بحوالي خمس أو ست أوراق طبيعية، والمادة التي تؤكل بيضاء وحلوة كاللبن ومنعشة.

هنالك شجرة يسمونها "كوقليس"[2] (Cougles)، وهي شجرة غريبة جداً وضخمة، كأنها تسعة أو عشرة أشجار ملتصقة ببعضها بشكل غير منتظم، ليس لها ثمار ولكن لها وردة لونها أزرق "Blue" وليست لها أي رائحة، وتوجد غابات كثيرة في هذه المنطقة بها أشجار مختلفة لم تعرف من قبل للأوروبيين.

قد بقينا في "قيسيم" هذه، مدة تسعة عشرة يوماً. هذه المنطقة هي نصف الطريق بين سنار وأثيوبيا. على خط عرض عشرة شمالاً، حسب ملاحظة الأب

1 شجرة الدوم.
2 غير معروفه.

"برفدنت"[1] (Father De Brevedend). ومن هنا كان علينا أن نترك الجمال نسبة لوجود الجبال، ولوجود أعشاب سامة بالنسبة للجمال، ولهذا يستعمل الأثيوبيون البغال والخيول. وهذه الجمال تباع في "قيسم" (Giesim)، حيث يستفاد منها في "قيرنا" (Girana)، لأن لها سوق هناك. لقد رأينا في "قيسم" قافلة من "الجبرتة" (Gebertis)، وهم مسلمون يتبعون لأمبراطور أثيوبيا، ويعاملهم معاملة الرقيق، كما تدل عليه أسماؤهم[2]. ما دعانا لأن نبقى زمناً طويلاً هناك[3]؛ هو وفاة الملكة- والدة الملك في سنار، حيث أن الضابط المرافق لنا رجع إلى سنار ليتلقى تعليمات جديدة من الملك- فاضطررنا لانتظاره، كانت خيبة أمل وصدمة قاسية بالنسبة لنا، لأننا فوجئنا بالأمطار، ففي البداية كانت الأمطار عادة تهطل بعد غروب الشمس، مسبوقة بالرعود والبروق. السماء هادئة بالنهار، ولكن حرارة الجو لا تطاق.

بدأنا السفر من "قيسيم" في يوم 11 يونيو، وبعد خمس ساعات وصلنا إلى قرية دليب المسماة بسبب هذا النوع من الشجر الممتد على مدى البصر. في اليوم التالي وصلنا "شاو" (Chau)؛ وهي قرية على النيل، واليوم التالي وصلنا قرية أبو تكنة، حيث توجد أشجار معروفة بأشجار الصندوق Box tree، وهي

---

1 يذكر بروس بأن قسيم لا تقع على خط °10 شمالاً، بل ´12 °14 شمالاً وتبعد حوالى 110 ميلاً من سنار، و203 من قوندار (المجلد ii، ص 495). ذكر هيوود بأن الخرائط تضعها بالقرب من منابع الدندر في خط °12 شمال ومهما يكن فإن هذا يضعها بعيداً في اتجاه الجنوب.

2 ذكر بروس (المجلد ii، ص 174) بأن استخدام اسم جبرتي يعنى بأنهم مسلمون أحباش. أما الكونيل إدى يعتقد بأن هذه الكلمة من الممكن أن تكون لها علاقة باللغة الجعزية. ومصطلح الأمهرية جابر يعنى الخادم (انظر صفحة 125). [من أجبر يجبر .. بالعربية فالكثير من المفردات العربية موجودة في الأمهرية (المراجع)].

3 يقرأ النص الفرنسي (في هذه المدينة) فإن الوضع جميلٌ ومقبولٌ.

أشجار خالية من الأوراق وليست قوية كأشجارنا. وعلى طول الطريق توجد غابات كثيفة بأشجار "تمر هندي"[1] (Tamarindus)، وهي دائمة الخضرة. أوراقها أكبر قليلاً من أوراق شجر السرو (Cybress). هذه الأشجار لها زهور زرقاء اللون، زكية الرائحة، وثمارها أشبه ما تكون كالخوخ أو البرقوف (Plum). ويطلقون عليها اسم (العرديب). هذه الغابات الكثيفة بشجر العرديب لا يمكن أن يتخللها ضوء الشمس.

قضينا الليل في وادي "سنون" (Sonnone) في مرعى بهيج، وبعد يومين وصلنا "سيركي" (Serke) وهي مدينة جميلة تحضن أكثر من خمسمائة أو ستمائة منزلٍ. نظيفة جداً، رغم مبانيها من "القنا" (Bambos)، ومحاطة بالجبال. يلتقي الخارج من المدينة بنهير صغير- وهذا النهير الصغير هو الذي يفصل بين أثيوبيا ومملكة سنار.

في يوم 20 يوينو غادرنا "سركي" (Serke) إلى "قوندار" (Gondar) عاصمة أثيوبيا، فوجدنا عدداً من "الينابيع" (Fountains)، وسلسلة من الجبال التي تغطيها الأشجار الغريبة- وغير معروفة في أوربا، وبدت لنا أنها أضخم وأطول من تلك التي شاهدناها في سنار، والجبال بعضها في شكل أهرامات والبعض الآخر شكلها مخروطي، وكل الأراضي مزروعة، ولا تكاد تجد أرضاً قاحلة أو بوراً، وفي الوقت نفسه[2] تجدها آهلة بالسكان، ويتخيلها الرائي بأنها مدينة ممتدة.

1 Tamarind us فهي غابات طبيعية في شرق أفريقيا تمتد من الحبشة إلى زامبيزي.
2 المقصود (D'ailleurs) فضلاً على ذلك.

لقد استقر بنا المطاف في اليوم الثاني في "تامبسو" (Tambisso)- وهي قرية كبيرة تابعة لبطريق أثيوبيا. وفي اليوم التالي أخذونا إلى "أبياد" (Abiad)، فوق جبل عالي، تغطيه أشجار الجميز "السايكمور" (Sycamore). فمن "قيسيم" إلى تلك القرية، كل الأراضي مزروعة بالقطن في مساحات واسعة.

في يوم 23 يونيو وقفنا عند وادي مليء بأشجار الأبنوس والخيزران الهندي؛ وهناك خطف أحد السباع واحداً من جمالنا، وجود السباع في هذه المنطقة ليلاً بصورة معتادة، ويمكن أن تسمع زئيرها طول الليل، إلا أنها لا تحب الضوء، ولذلك تُشعل النيران ليلاً لإبعاد السباع من تلك المنطقة. تنمو في قمم تلك الجبال الجويسئة[1] العطرية، والأعشاب، والنباتات العطرية الأخرى.

في يوم 24 يونيو عبرنا نهر "قاندوڤا" (Gandova)[2]، وهو عميق وسريع التيار، مما يجعل في عبوره بعض الخطورة. فهو ليس عريضاً كنهر السين في باريس. فإنه ينساب بين الجبال بعنف شديد في زمن الفيضان، ويجرف أي شيء أمامه. يستمر هذا الفيضان في بعض الأحيان لمدة عشرة أيام. لم تواجهنا عقبات من جانبه، حيث كنا في زمن التحاريق، ويمتزج مع نهر "تكسل" (Tekesel)[3] الذي يسمونه "الرهيب" (Dreadful)، ثم يصبان في نهر النيل. ولقد عبرنا نهرين آخرين كبيرين في اليوم التالي تحيطهما أشجار ضخمة وطويلة جداً، مثل أشجار الزان. في ذلك اليوم انفرد أحد حيواناتنا الناقلة من القافلة، فهجم عليه

---

1 الجُوَيْسئة، عشبة طبية لعلاج التهاب الحنجرة.

2 قانداڤا: نهر ينبع من شمالا غرب بحيرة تانا، ويتصل بأنهار أخرى مكوناً نهر عطبرة (أتبرا).

3 تاكاز: ينبع من شرق بحيرة تانا، ويحرى بإتجاه الشمال، ويلتقي بأتبرا عند خط عرض 10 14 شمالاً، هذه الأنهار المتحدة تنساب في النيل بمسافة (200) ميل أسفل الخرطوم. الموسوعة البريطانية تقول بأن تاكاز تعني (الرهيب).

ذئب[1]، وعضه في عجزه، مما سبب له جرحاً كبيراً وخطيراً. الأهالي هناك ليس لهم علاج لمثل هذه الحالات سوى الكي بالنار، عولج الحيوان بهذه الطريقة وشفي تماماً.

في يوم 26 يونيو دخلنا في سهل منيع مليء بأشجار الرمان، وسرنا فيه أثناء الليل متجهين نحو "جيرانا" (Girana) التي وصلناها في اليوم التالي. وهي قرية على قمة جبل. ومنها تستطيع أن نكتشف أكثر البلاد بهجةً وفتنةً. ومن هذا المكان تستطيع أن تغير كل وسائل السفر السابقة. وتترك الجمال وتستبدلها بالخيل.

لقد زارنا سيد "جيرانا" (Girana) وأمر بتقديم المرطبات لنا، كما وجدنا ثلاثين من رجال الأمن أرسلهم الإمبراطور لمرافقتنا؛ تكريماً لأخ البطريق الذي كان ضمن قافلتنا. كما تولوا مسؤولية حمل أمتعتنا حسب تقاليد الإمبراطورية المعمول بها؛ وهي كما يأتي: عندما يدعو الإمبراطور أي شخص لحضور بلاطه، فتسلم كل الأمتعة لسيد أول قربة في المنطقة، وهو بدوره يسلمها للتابعين أو الخدم (Vassals)، وهو بدورهم يسلمونها للقرية التي تليهم، ويستمر الحال هكذا متوالياً إلى أن يصلوا العاصمة في سلام وانضباط تام.

اضطررنا للبقاء بعض الأيام في (Gerana) لهطول الأمطار الغزيرة، ومتاعب الرحلة، وفوق كل ذلك مرض الأب "De Brevedent"، ثم غادرناها في أول يوليو، وبعد مسيرة ثلاث ساعات بين الجبال وطرق صعبة المسالك وصلنا إلى

1 يقول بروس لا توجد دببة في هذا الجزء من القارة، وقد تكون ضباع مفترسة.

"Branga" وفي اليوم التالي إلى "Chelga"[1] وهي مدينة كبيرة ومحاطة من كل الجوانب بأشجار الألوة "aloes" (الصبِر). وهي مركز تجاري كبير ونشط في كل الأيام. يحضر له الأهالي من الأماكن المجاورة لمزاولة التجارة في الزباد الذهب، وكأنواع المواشي والمؤن. ولملك سنار فى هذه المدينة، وبموافقة الإمبراطور الأثيوبي، ضابطٌ للجمارك، لتحصيل العوائد الجمركية على القطن الذي يرد إلى أثيوبيا. هذه العوائد تقسم مناصفة بين مملكتي سنار وأثيوبيا.

على بعد "فرسخين ونصف" (League) شمالاً من "شلقا" تظهر سيول تتساقط مياهها من قمة جبل شامخ وبانحدار شديد، مكونة شلالاً طبيعياً يصعب على المثال تصويره. توزع مياه الشلال لعدة قنوات لتروي كل المنطقة وتخصيبها.

في اليوم الثالث من يوليو وصلنا مدينة "باركو" (Barko)[2]، وهي مدينة صغيرة ونظيفة في وسط سهل جميل. وتستغرق الرحلة منها إلى عاصمة أثيوبيا مسيرة نصف يوم. اضطررنا للبقاء هناك، حيث إني أصبت بمرض شديد، كما أصيب الأب "دي برڤدنت" بإسهال عنيف لتناوله (indian Pine apples)[3] الذي أحضره من طرابلس في سوريا. هذا الإسهال[4] سبب له متاعب جمة، وازعاج شديد لدرجة أنه كان يخفيه على خجلاً؛ لكني شعرت وعلمت بكل ما يعانيه من متاعب. فطلبت أن أُحمل لغرفته، رغم أني كنت أعاني كثيراً من مرضي.

---

1 شيلقا، حوالى 25 ميلاً جنوب غرب قوندار، خط عرض 30 12، خط طول 375.

2 سماها بودج بارتشا (Bartcha).

3 بالفرنسية تسمى صنوبرة الهند وعرفها ليتر بدوز جانزوفا الكركاس (Jatropha crcos)، حامضة المذاق وهي من المسهلات.

4 (Philos Cosmopol) (هوامش المؤلف).

فكانت دموعي أبلغ من التعبير بالكلمات بأني يئست من شفائه، ولا علاج لحالته تلك. كانت دموعي تنم عن إخلاصي وحبي له؛ ولو كان في إمكاني أن أنقذ حياته بأن أفديه بحياتي لما ترددت؛ ولفعلت ذلك بكل سرور. ولكنه قد أكمل فترة عبادته وإخلاصه لربه التي قدرها لها.

لقد عرفته في القاهرة عندما كانت سمعته تطبق الآفاق بورعه وعبادته الخالصة لمعجزات والتنبؤات التي وهبها له. كنت أسمع عن تنبؤاته من قبل، ولكن عندما التقيت به- تيقنت من ذلك- خاصة بالنسبة لموته ولغيبيات أخرى ذكرها لي، من خلال الرحلة كان حديثه يوحي بالروحانيات والتجلة الربانية التي كان لها تأثيرٌ بالغٌ على. وفي لحظاته الأخيرة كان قلبه ينبض بالحب والشكر لله. ذلك المشهد سيظل قابعاً في ذاكرتي أبد الدهر، مع تلك العواطف النبيلة التي كان يكنها لتلك الأقطار الأجنبية، خاصة عندما تراءت لنا ملامح عاصمة أثيوبيا- مثل ذلك الموقف الذي حدث للقديس فرانسيس الزائيري (St. Francis Xaverius) "الذي كان يحمل اسمه"، الذي مات على مرآى ومشارف الصين التي كان ينوي دخولها ليبشر فيها بالسيد المسيح.

إذا كان من العدل أن أنصف الأب "دي برفدنت"؛ فلا بد لي أن اعترف بأني لم أعرف رجلاً شديد الخشية، وافر الشجاعة عند المخاطر، صارم في قراره، تقيٌ، متواضع ورع باحكام الدين، ودماثة الاخلاق والمعشر[1].

---

1 بعض تفاصيل هذا اليسوعي المحترم ذكرها الأب لوقوبيان (Le Gobien) في تقديمه لنسخة بونسه الفرنسية. ينحدر دي برفدنت ينحدر من أسرة روين المعروفة. بعد أن انضم إلى اليسوعيين نذر نفسه لدراسة اللاهوت والرياضيات. وفي عام 1685م جذب مشروعه (آلة الحركة الدائمة) الانتباه. ولكنه بعد ذلك وهب جل أهتمامه بالعمل التبشيرى وعمل لأكثر من عشرة أعوام في جزر الارخبيل في اليونان وسوريا. بقدومه

توفى في يوم 9 يوليو 1699 الساعة الثالثة ليلاً. وقد تأثر العديد، حيث حضر وفاته مجموعة كبيرة من رجال الدين الأثيوبيين، الذين يعيشون ويحتفظون بذكراه الطيبة في قلوبهم كمبشر تقي. وقد حضروا في اليوم التالي مرتدين ازياءهم الطقوسية حاملين في أياديهم صلبانا حديدية "iron Crosses".

بعد نهاية صلواتهم ومراسم البخور حسب عاداتهم أخذوا الجثمان إلى كنيسة السيدة مريم العذراء. الأحزان والآلام التي غمرتني أجبرتني أن أبقى في "باركو" (Barko) حتى يوم 21 يوليو، وهو اليوم الذي غادرت فيه إلى "قندار"[1]، التي وصلتها في مساء اليوم نفسه، ونزلت في الأقصر في غرفة بجوار غرفة أطفال الإمبراطور[2]، الذي تشرفت بمقابلته في اليوم التالي، وبادرني بشعور طيب، ومواسياً في وفاة رفيقي في الرحلة الذي سمع وعرف الكثير عن اتجاهاته وتصرفاته الدينية، وكراماته ومقدراته العظيمة، وقد طلب مني أن أكون مستعداً قبل أن أظهر أمام الجمهور، وكان يأتي يومياً لزيارتي في غرفتي عبر صالة متصلة برفته.

بعد ما أخذت قسطاً من الراحة من الآلام والمتاعب التي أصابتني أثناء تلك الرحلة الطويلة، سمح لي أن التقي بالجمهور، وكان ذلك في اليوم العاشر

للقاهرة ميز نفسه اثناء عمله وسط ضحايا الطاعون. ولطف مسلكه وتقشفه في الحياة جذب إليه كل من عرفه.

1 تسمى هذه المدينة بمدينة الخاتم (هوامش المؤلف) وهي مدينة قوندار ولكن لا يبدو أن لا علاقه لها (بالختم). قوندار لمدة قرون كانت عاصمة لأثيوبيا وتقع 25 ميلاً شمال بحيرة تانا في خط عرض 35 12 شمال وخط طول 30 37 شرقاً وهي مبنية على جبال يرتفع بمقدار 6,000 قدم فوق مستوى البحر. أما الآن فهي أقل أهمية وسكانها تقريباً حوالى 5,000 نسمة. أنقاض القصور الملكية (حطمها منكليك 1866م) من الملامح الواضحة. لها ثلاثة صور في كتاب دكتور ماثيو والصور الآخرى لدي يدج.

2 ذكر دومايت حسب رواية بونسيه بأنه أسكن في البداية في كوخ محلي ولكن بعد أن أشتكي من الكوخ حدد له الإمبراطور منزلا على الطراز الأوربي وشيده البرتغاليين (لوقراند ص 367)

من أغسطس الساعة العاشرة صباحاً. فقد انتظروني في غرفتي التي قادوني منها إلى قاعة كبرى، مروراً بأكثر من عشرين غرفة، حتى وجدنا الإمبراطور جالساً على عرشه، وكان عبارة عن مركبة مغطاة بسجاد من الدمقس الأحمر الموشي بالذهب، ومحاطة بمساند مذهبة[1]، وكرسي العرش الذي له أرجل من الفضة– موضوعاً في زاوية في الصالة وعليه قبة والكل يلمع بالذهب واللازورد والإمبراطور يرتدي جبة لامعة موشاة بالذهب ولها أكمام طويلة، الحزام والشال الذى يتمنطق به مزخرف الطريقة نفسها. كان عاري الرأس، ولكن شعره مضفر بطريقة جميلة. وضعت جوهرة لامعة على جبهته، مما يضفي عليه جلال الملك. كان جالساً وحده على العربة تحت القبة التي ذكرتها آنفاً، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى بطريقة الشرقيين. يقف السادة الأعيان على الجانبين حسب مرتباتهم عاكفين أيديهم على بعضها في صمت كامل رهيب.

عندما دخلت عتبة العرش أديت ثلاثة انحناءات للإمبراطور وقبلت يده، وهذه العملية لا يسمح بها إلا لنوع من الناس بعينهم، أما الآخرون فلا يسمح لهم بتقبيل يده إلا إذا سجدوا على الأرض ثلاثة مرات وقبلوا أرجله. فقدمت له خطاب السيد (Maillet)، القنصل الفرنسي في القاهرة، ترجم إليه الخطاب؛ وظهر عليه الانشراح والسرور. ووجه إلى عدة أسئلة خاصة بالملك. وذكر لي بأنه أحسن وأعظم أمير في أوروبا، كما تحدث عن عظمة وقوة فرنسا. وبعد أن قمت بالإجابة على الأسئلة قدمت له الهدايا؛ وهي عبارة عن صور ومرايات وبعض الأواني الكريستال الزجاجية ومشغولات زجاجية مزخرفة بدقة. تقبل

1 في النص الفرنسي (الذهب).

الإمبراطور الهدايا بكل بهجة وسرور، وبما أني ما زلت كنت لم يتم شفائي؛ فقد أمر بأن أجلس وأكون تحت العناية الخاصة.

في اليوم التالي كان هو وأحد أبنائه يزاولان تمارينهما الرياضية. ولقد اهتما بالحمية الغذائية التي وصفتها لهما، وظهرت نتيجتها[1] الفعالة لهما. لقد شعرت بأن هذا الأمير شديد الرحمة والعطف؛ إذ إنه رغم أنه لم يكمل علاجه لم يتخلف عن مشاركة الجماهير في الاحتفال الذي أقيم بالنسبة للسيدة العذراء؛ التي يكنّ لها الأثيوبيون كلّ الولاء والحب، فوجه لي الدعوة لحضور ذلك الاحتفال، ولكني لم أتمكن للذهاب في الساعة الثامنة، بل وجدت حوالي (12) ألف رجل مصطفِّين في فناء القصر. وكان الإمبراطور في تلك المناسبة مكسياً بثوب من المخمل الأزرق ومزخرفاً بالذهب، تجر أزياله بالأرض، وكان رأسه مغطى بقماش ناعم وخفيف مزخرف بخطوط ذهبية تحيط بما يشبه التاج، على طريقة العهود "القديمة" نفسها التي تترك نصف رأسه عاريّاً. كان حذاؤه من الجلد المصنع على الطريقة الهندية ومزخرف باللؤلؤ. وكان أميران يرتديان ملابساً فخمة ينتظرانه في مدخل القصر، حاملين مظلة فخمة التي سار تحتها الأمير في مسيرة تتقدمها الفرق الموسيقية بآلات العزف والطبول[2] المختلفة بإيقاع منسجم (Harmony) مع الآلات الوترية (الطمبور). كان يتبعه سبعة من وزراء الإمبراطورية السبعة، وكلٌّ يحمل رمحاً في يده رؤوسهم مغطاة بطريقة أشبه بالإمبراطور، ومن كان يتوسطهم يحمل التاج الإمبراطوري، وهو عاري

---

1 أسقط المترجم الفقرة التالية (هذا النجاح جلب لي عرفاناً وتقديراً جديداً، حيث إن الإمبراطور عاملني بحميمية أكثر من قبل.

2 أضاف النص الفرنسي (القيثار).

الرأس؛ ويضم التاج على صدره بصعوبة شديدة؛ وعلى قمة ذلك التاج العظيم صلبان مزخرفة بالأحجار الكريمة، مما يضفي عليه روعة وجمالاً. كنت أسير مع الوزراء على النمط التركي، الذي كانوا يتبعونه، بقيادة أحد الضباط الذي كان ممسكاً بيدي، والذي كان يمشي على نغمات الموسيقى والنشيد المصاحب لها؛ والذي يُردده كل من كان في المسيرة. ثم يأتي الجنود المسلحين ببنادق المسكيت مرتدين سترات مغلقة بألوان مختلفة، يتبعهم رماة القوس والسهام (archers)؛ وتنتهي هذه المسيرة عند الخيالة، الذين يقودون الأمير بخيولهم المزخرفة بأغلى أنواع الذهب الذي يتدلى من عليها حتى يصل الأرض، وعليها فراء من أجمل جلود النمر.

كان البطريق، حسب العادة السائدة يقف (بصلبانه) الذهبية. عند مدخل الكنيسة، مصحوباً بحوالي مائة من رجال الدين في زيهم الأبيض. كانوا مصطفين على جانبي الطريق– وكان بعضهم بداخل الكنيسة، والبعض الآخر بالخارج (كنيسة القيّامة)[1]، أخذ البطريق الإمبراطور بيده اليمنى إلى الوسط. وحمل رجال الدين[2] مظلة الإمبراطور فوق رأسه إلى مكان صلواته؛ الذي كان مغطى بأبهى السجاد على مصطبة لتماثيل مصاطب صلوات الأساقفة في إيطاليا.

---

1 باللغة الأمهرية (linsa christos) تعني (بعث المسيح) ("الكنيسة" كلمة معروفة). أما دكتور ماتيو (ص 68) يقترح بأن (Chapel) (كنيسة صغيرة) (Addebabai Jusus). [تعني بالأمهرية مكان معروف أي مكان الله المعروف (المراجع)].

2 أضاف النص الفرنسي (إلى مكان بالقرب من المذبح).

ظل الإمبراطور واقفاً طول الوقت في الاحتفال إلى أن انتهى البطريق من كل المراسم، وكان القداس ملوكياً جميلاً للغاية؛ وجماهيرياً غاية الإبداع، ولكني لا أستطيع أن أصف كل ما حدث فيه من روعة. وعند نهاية الاحتفال أطلقت المدفعية قذيفتين كما حدث في البداية. ثم انسحب الإمبراطور وعاد إلى القصر بالمراسم نفسها التي حضر بها. والضابط الذي كان يحمل التاج سلمه إلى أمين الخزانة العالي.

عندما عاد الإمبراطور إلى القصر، جلس على عرشه المرتفع في الصالة- وعلى جانبيه ابنيه الأميرين، ومن خلفهم الوزراء. وكان مقعدي مرتفعاً أيضاً؛ مقابلاً مقعد الملك. وظل كل المجتمعين واقفين مربعين أياديهم وفي صمت رهيب. بعد أن شرب الإمبراطور جزءاً من (Metheglin)[1]، وجزءاً آخر من قشر البرتقال، الذي قدم إليه في كأس من الذهب؛ قُدِّم إليه ذوي الحاجات، فتسلم عرائضهم أحد الوزراء، وأخذ يقرأ بصوت عال. وفي بعض الأحيان يأخذ الإمبراطور العرائض ويقرأها بنفسه، ويستجيب إليها في الوقت نفسه.

في ذلك اليوم يأخذ الإمبراطور وجباته علنياً وبصورة احتفائية، حيث يتم إجلاسه على نوع من الأسرة، توضع أمامه طاولة كبيرة، كما توضع طاولات أقل في الحجم للحاشية، وهي من لحم البقر والضأن والطيور. ويطبخونها جميعاً مع بعضها، مضافاً إليها الفلفل وبعض البهارات الأخرى الغير معروفة لدينا-

---

1 Metheglin هو الميد: وهو شراب مخمر يُعد من العسل والدخن والخميرة.

ولذلك لا يستطيع الأوربيون تناولها؛ وعادة يقدمونها في أواني صينية، وعلى طبق واحد.

لم أر أي نوع من دجاج الوادي، وأكدوا لي بأنه لا يؤكل في أثيوبيا. ولقد عجبت كثيراً عندما رأيتهم يقدمون لحم البقر نيئاً (غير مطبوخ) للأكل- ويقدمونه حتى على مائدة الإمبراطور. ويُتبل بطريقة خاصة. بعد أن يقطع إلى قطع صغيرة يصب فيه مادة الصفراء المستخرجة من الحيوان نفسه، ثم يضاف الفلفل وتوابل أخرى. هذه اليخنة كثيرة التوابل، والتي حسب رأيهم أنها أكثر طبق متقن يمكن إعداده، كانت بالنسبة لي مثيرة للغثيان. فلقد امتنع الإمبراطور عن تناوله، لأني أشرت إليه بأنه ليس هنالك مايضر بالصحة العامة سوى هذا التصرف. عندهم طريقة أخرى لتتبيل اللحوم في هذا القطر. وهي بعد أن ينظفوا المعدة (الكرشة) من محتوياتها التي لم يتم هضمها، ويخلطوها مع اللحم "والماستردا" (Mustard) ليعدوا يخنة يسمونها (Menta)[1] وهي نوع أخطر على الصحة مما ذكرت آنفاً.

بما أن الطاولة التي أجلس فيها كانت بالقرب من الإمبراطور، ولذلك كان كثيراً ما يوجه أسئلته لي[2]. وكان هنالك موظفٌ مهمته أن يتذوق كل أنواع الأطعمة الموضوعة على السفرة. قد شرب الإمبراطور في البداية قليلاً من

---

1 أنظر لودلف، ص 387). (لوقراند ص 1172) أعطي اسم (manta) إلى المستطردة والذي يضع من كرش الحيوانات ويطهي مع الزبدة والملح والفلفل والبصل وهو أيضاً مثله كمثل بونسي وجد هذا الخليط غير مستساغ.

2 ينبغي أن نذكر الآتي (أنصب حديثه حول الملك والاحداث العظيمة التي حدثت في عهده. أخبرني بأنه كان مفتوناً بالرواية التي قيلت عنه بواسطة أحد سفرائه عندما عاد من الأنديز وأنه يعتبر هذا الأمير العظيم بطل أوربا.

البراندي (Brandy) قدم له في كأس من الزجاج، وبعد ذلك قدم له المِيد، فإذا ما حاول المزيد منه لا يعطوه إياه، ويقوم على الفور من السفرة.

من المدهش حقاً- أن يكون في القطر أجود أنواع العنب والذبيب، ولكنهم يفضلون تعاطي "المثقلين" المِيد. وقد علمت أخيراً أنهم لا يحبذون الخمور المصنوعة من الذبيب، لأنها لا تتلائم مع الحرارة العالية التي تفسدها. ولذلك لا يميل إليها الإمبراطور[1] مثل رعاياه. تصنع المِيد من الشعير و"الذريعة" بعد سحقها حتى تكون مسحوقاً، ويضاف إليه مسحوق آخر من جذور الأشجار التي تنمو هنالك، ويأخذون جرة معقولة، ويضاف إليه حوالي أربعة أرطال من الماء، وأوقيتين من الجذور المسحونة (Tado)، ثم يتركونها في مكان دافئ لمدة ثلاث ساعات، ويخلطونها (Stiring) من وقت لآخر حتى تصبح شراباً جيداً وصافياً وأبيض اللون، كالخمر الأسباني (White Spanish Wine). "إنه نوع جيد من الخمر"، ولكنه يحتاج إلى معدة أكثر صحة وسلامة من معدتي قوي المفعول؛ ويستخلصون منه نوعاً من "البراندي" (Brandy) يعادل في جودته ما يقطر في بلادنا.

حضرت الإمبراطورة[2] لزيارة الإمبراطور. وكانت كلّها مغطاة بالجواهر وفي البهى الثياب. كان لها بشرة جميلة وطريقة مشي ملوكية، وعند قدومها انسحب كل من كان في البلاط الملكي كرمز للاحترام. الإمبراطور أبقاني ومعي

---

1 ذكر (لوقراند ص 73) معظم هذه الأسباب.

2 كانت تدعى ملاكوتاويت (Malakotawit). لم تكن زوجة إياسو (Iyasu) الشرعية بل خليلته المفضلة (بدج، المجلد ii، ص 408). في ثورة 1706 وقفت في صف ابنها ضد والده وكانت متورطه في اغتيال الإمبراطور (مايثوص، 69,70).

أحد رجال الدين، كان يعمل معي كمترجم. كانت صاحبة الجلالة تذكر لي بعض أعراض آلامها. وبعد ذلك سألتني عن حسن ورشاقة نساء فرنسا وعن ملابسهن وطبيعة أعمالهن وتعاملهن.

القصر فسيح، وفي موقع جميل ومرتفع في وسط المدينة. يستطيع الناظر من فوقه أن يرى كل الأحياء من حوله، في دائرة يكاد محيطها أن يكون حوالي فرسخ (League). الحيطان مبنية بالحجر الحر وعلى الجوانب الأبراج التي رفعت عليها صلبان من الحجر. توجد أيضاً في داخل القصر أربع مصليات أمبراطورية يسمونها بيت المسيح (Beit Christian)[1]. وبيوت المسيحيين (Houses of Chsistions). ويقوم بالعمل فيها حوالي مائة شخص من رجال الدين، ولديهم أيضاً كلية علمية يعلمون فيها موظفي القصر الكتاب المقدس.

الأميرة هليكا (Princess Hlica)، شقيقة الإمبراطور، لها قصر منيف في قندار للمدينة، وغير مصرح أو مسموح للإمبراطورات في أثيوبيا أن يتزوجن من الأجانب، فهي متزوجة من أعظم اللوردات في إمبراطورية أثيوبيا، فهي تذهب ثلاث مرات في الأسبوع لزيارة أخيها الذي يحيطها بعطفه واحترامه. وعندما تظهر هذه الإمبراطورة لدى الجماهير، تكون راكبة على بغلة محفوفة بالزينة، وعلى جانبيها وصيفتان يظللانها بمظلة يحملانها على جانبيها. وتحيط بحوالي أربعمائة أو خمسمائة امرأة، ينشدن أغاني المدح لها. ويلعبن بالطمبور، ويمرحن ويرقصن في بهجة وانشراح.

---

1 (Beta kristyan) بالأمهرية تعنى الكنيسة وليس المنزل [الكلمة مكونة من مقطعين مشتقين من العربية والإنجليزية Beta بمعنى، بيت والأخرى بمعنى المسيح (المراجع)].

هنالك بعض المنازل في قوندار بنيت على النمط الأروبي، ولكن الغالبية العظمى من المنازل تشبه الأنفاق[1]، حيث إن أبوابها في أسفلها. وبالرغم من أن المدينة تمتد على مساحة ثلاثة أو أربعة فراسخ، إلا أنها لا تحتوى أي جماليات كما هو الحال عندنا. ولا يمكن أن تكون، لأنها من طابق واحد فقط، وليس لها أي متاجر، وهذا لايعيقها؛ حيث إن لها تجارة رائجة، إذ إن التجار يجتمعون في مكان واسع وفسيح لمزاولة نشاطهم التجاري عليه تعرض سلعهم. ويبتدئ التعامل التجاري منذ الصباح الباكر إلى الليل- كل السلع تعرض هنالك للشراء والبيع. فلكل تاجر مكان معين، يفرش عليه حصيرة، يعرض عليها بضاعته للبيع.

الذهب والملح هي العملة التي تتداول في المعاملات التجارية، الذهب ليس مختوماً بصورة الأمير، كما هو الحال في أوروبا. وهي في شكل اسفين يقطع منه حسب الطلب، بدءاً بالأوقية إلى نصف الدرهم. ومع ذلك لا يوجد غش أو تزوير، يوجد في كل الأماكن صياغ مهرة، يصنعون من الملح الحجري النقود الجزئية للتعامل بها، أنها بيضاء كالثلج، وفي قوة وصلابة الحجر، وهو من جبل (لافتا Lafta)، وتحمل في خزائن الإمبراطور، حيث تشكل في شكل قضبان، ويطلقون عليها اسم (عمولة Amoula)[2] أو أنصاف قضبان، ويسمونها (كورمان Courman)[3]. ويبلغ طول القضيب قدم في الطول- وثلاث بوصات

---

1 ذكر لوكمان (cone) مخروطى، أما الكلمة الفرنسية هي (entonnoir) بمعنى (القمع)، والتي تقابل في الانجليزية (funnel) بمعنى (القمع)، ولكن لا يوجد خطأ طباعي في تكرار الكلمة في (ص 144). قاموس أكسفورد ذكر بأن الكلمة الأخيرة يكون لها معنى العمود أو أنبوب المدخنة.

2 بالأمهرية تعنى مُخصص أو معين [الملح الصخري يستخدم كعملة (المراجع).

3 بالأمهرية تعني نصف الربع القغيب.

في العرض والسمك. وعشرة من هذه الأعمدة تساوي ثلاثة جنيهات (ليفرز - Livers).

ويمكن تكسيرها إلى أجزاء حسب المبلغ المفروض دفعة قوتها الشرائية، كما وأنهم يستعملوا الملح كذلك في الأغراض المنزلية[1].

توجد حوالي مائة كنيسة بمدينة قوندار. والبطريق الذي يسكن في قصر متواضع داخل حرم الكنيسة يعتمد على بطريق الإسكندرية الذي قام بترسيمه. ويعين البطريق[2] كل رؤساء الرهبان، وله مطلق السلطة عليهم مع إنهم كُثر؛ لأنه لايوجد قسيس غيره في أثيوبيا. ويكنّ الإمبراطور إحتراماً عظيماً لهذا الزعيم الديني، طلب مني الإمبراطور أن أزور هذا البطريق، وأقدم له بعض التحف التي أعطاني إياها لأقدمها له، قابلني بترحاب شديد؛ ووضع رداءً دينيّاً حول عنقي، وكان يحمل صليباً في يده، وأخذ يقرأ ويردد بعض التراتيل فوق

---

1 ذكر هاملتون (المجلد i، ص 25) (العملة المتداولة حالياً في أثيوبيا هي الملح وهو يستخرج من الجبال كما تستخرج نحن الحجارة من المحاجر ويقسمونها إلى قطع صغيرة متعددة الاحجام، فالكبيرة منها تزن 80 رطلاً والقطع الأخرى تتداوح ما بين 5 و10 و20 و40 رطلاً، وتجدهم بارعين في تجزئة هذه القطع. فالخطأ عندهم لايتجاوز الـ 5%. من الوزن، فالعشرون جنيهاً في القيمة يساوي شلناً إسترليني. هذه القطع من الملح تمثل العملة الحالية في أسواقهم شراء مواد التموين، وكذلك عندما يشترون باردة أو اثنين في المرة الواحدة عندما يكون واحد من التجار له كمية معتبرة من هذه القطع نجد المصرفيين يدفعون له الذهب مقابل هذه القطع.

2 الجالية المسيحية أصولها من بطريكية الإسكندرية، وما زالت تخضع من بعد لها ويحافظ على الصلة مع الإسكندرية من خلال مطران الكنيسة الأثيوبية وبعرف بأبونا هذا المطر أن يكون دائما مصريا، ويختار من بين رهبان دير القديس انطونيوس القبطي. والذي يُرسّم لحياة منفى طول حياته، ويظل في عقل الناس وفي خطاباته غريباً، وبالرغم من وجود قساوسة وفي بعض الأحيان أسقف مساعد فإن (أبونا) فقط من يملك حق الترسيم وترسيم القساوسة (ماثيو ص 11).

رأسي، باعتبار أن أكون – مستقبلاً أحد أتباعه وأطفاله، للقساوسة سلطة عظيمة على الجماهير، ولكنهم يسيئون استقلالها في بعض الأحيان[1].

الإمبراطور (آتي باسيلي Ati- Basili)[2] وهو جد الإمبراطور الحالي، ألقى بسبعة آلاف رجل منهم من قمة جبل بالباو (Balbau)؛ لأنهم قاموا بثورة ضده، يستطيع الإنسان أن يتخيل ضخامة العدد الذي تخلص منه، ولقد أخبرني البطريق الحالي أن ذلك الجد بمرسوم واحد عين عشرة آلاف قسيس وستمائة راهب[3]؛ وتتكون طقوس الترسيم من الآتي: يجلس البطريق ويقرأ إنجيل القديس جون فوق رؤوس القساوسة المرسمين، ويعطيهم بركاته مستخدماً صليب حديدي حوالي (7 – 8) أرطال يحمله في يده. أما الشماسة فيكتفي بإعطائهم بركاته دون قراءة الإنجيل[4].

سلفُ البطريق الحالي الذي كان معلماً للإمبراطور. قد مات عندما كنت بقندار، وبما أنهِ قد عزل من منصبه لسوء تصرفاته، لكن الإمبراطور يُكِنّ له كل الود؛ لأنه نهل العلوم على يديه. وعندما أصبح مريضاً في (تنكت Tenket)، أمرني الإمبراطور للذهاب إليه لإنقاذ حياته. فقضيت معه يومين لفحص مرضة الميئوس من علاجه – الأمر الذي جعلني ألا أقدم له أي نوع من العلاج؛ حتى لا أفقد سمعتي بين تلك الأمة الجاهلة، حتى لايعتقدوا بأنني السبب في موته الذي حدث بعد يومين من وصولي له.

---

1 فاسيليداس الذي حكم من 1632 – 1667.
2 (Ati) في اللغه الأمهرية تعني الإمبراطور.
3 أبونا سِنادة (ماثيو ص 63).
4 أعطى الفارز (ص 246) وصفا مطولا لأحد هذه الاحتفالات.

عند عودتي - دخلت في واحدة من أكثر المغامرات غير العادية في حياتي. عندما كنت عائداً إلى قوندار على ظهر بغلة، (وهي وسيلة النقل المعتادة للسفر في ذلك القطر). أصاب البغلة نوعٌ من الذعر المخيف، مما جعلها لايمكن كبت جماحها أو السيطرة عليها . لقد مرت بسرعة خيالية على ثلاثة جروف منحدرة[1]! عناية الله أنقذتنا منها، حيث كنت ملتصقاً وممسكاً بكل قوايا في البغلة الجامحة بهذه الصورة التي كانت أقرب إلى الطيران من الجري السريع.

(مراد Mourat) الذي أوفده الإمبراطور ليكون سفيراً في فرنسا، كان لايزال في القاهرة (كان في انتظار التعليمات)؛ وكل خدمي كانوا شهودا على هذا الحادث المريع - الذي تنبأ به الأب (برفدنت Father De Brevedent) قبل موته.

الإمبراطور كان حزيناً لوفاة البطريق الكبير. أقام مراسم الحزن لمدة ستة أسابيع كان يرتدي خلالها ملابس الحداد، ولمدة إسبوعين كان يسمع النحيب مرتين في اليوم، في حين يلبس الأمراء في أثيوبيا الملابس الشاحبة اللون للحداد والحزن كما هو الحال في فرنسا.

يتساوى الذعر عند الأثيوبين من المسلمين والأوربين لان المسلمين أظهروا جبروتهم وقوتهم للأثيوبين في بداية القرن السادس عشر، واستولوا على الحكم هناك. فلم يحتمل الأثيوبين[2] ذلك الوضع الشنيع الكريه من المسلمين؛ استنجدوا بالبرتغاليين لمساعدتهم الذين اشتهروا في ذلك الوقت في الإنديز

1 تعني الهوة أو الصدع. كل المنطقة الجبلية تلتحم بممرات ضيقة.
2 ابسنيا Abyssinia اسم مشتق من حبش، الاسم العربي لقطرهم. وهذا بدوره مشتق حبشات، اسم قبيلة غازية (ماثيو ص 8).

(Indies) حيث استقروا فيها حديثاً. فالفاتحون الجدد استبشروا بهذا العرض المريح، وزحفوا نحو المسلمين وهزموهم شرهزيمة. وأجلسوا العائلة المالكة على العرش. ووجد البرتغاليون موقعاً مريحاً في البلاط الملكي[1]. وكثير منهم زرعوا أنفسهم في المناصب الرئيسية العليا في أثيوبيا، أخذ عددهم في الازدياد، وبالتالي أعطوا أنفسهم مزيداً من الحريات، وازداد الفساد والرشوة. وتصاعدت الغيره، والشك بينهم لدرجة أن الأثيوبين شعروا بأنهم أصبحوا تحت التاج البرتغالي، وعلى هذا فقد ثأر الأهالي على البرتغاليين – وعليه فقد حملوا الأسلحة وثاروا عليهم تقتيلاً بشعاً. وفي الوقت الذي شعروا فيه بأنهم أمنون داخل الإمبراطورية. فالذين هربوا ونجوا من تلك المذابح، فقد منحوا الحرية للتقاعد والتخلي عن مناصبهم. ولقد نزحت حوالي سبعة آلاف عائلة من البرتغاليين على سواحل إفريقيا إلى الإنديز (Endies). ولقد بقي بعضٌ منهم – اختلطوا مع الأثيوبين، وهكذا خرج منهم الأثيوبين البيض، ومنهم كانت الإمبراطورة الحالية (التي ذكرتها آنفاً).

المسلمون عاشوا في سلم في قوندار، ولكنهم في الجزء الأسفل من المدينة وفي قطاع خاص.

ويسمونهم (جبرتة Gebertis) – وتعني (عبيد Slaves)، والأثيوبيون لايطيقون أن يأكلوا معهم، ولا يأكلون لحماً ذبحه المسلمون، ولا يشربون من كوب استعملوه، إلا إذا باركه رجل دين بقراءة بعض الصلوات فيه، وينفث فيه

---

1 من أجل حملة كريستوفاو داقاما في عام 1542 انظر ما ثيو (ص 11، 37) وانظر مجلد (R.S.Whiteway) (هاكليت، Ser ii، مجلد 10).

ثلاث مرات لطرد الروح الشريرة، وعندما يقابله يسلم عليه بيده اليسرى – كنوع من الازدراء، والاحتقار.

إمبراطورية أثيوبيا ممتدة على مساحة واسعة، وتتكون من عدة ممالك. تلك الخاصة بالتقري[1] يدعى حاكمها (قواراكوس Gawerakos)، ويحكم أربعاً وعشرين مقاطعة، عبارة عن حكومات صغيرة. مملكة (أقاو Agau)[2] محتلة حديثاً وضمت للإمبراطورية. كانت قائمة بذاتها على طريقة بدائية بقوانين مختلفة.

لإمبراطور أثيوبيا جيشان – أحدهما على حدود مملكة (نيريا Nerea)[3]، والآخر على حدود مملكة (قويام Goyame)[4] الغنية بمناجم الذهب، وكانوا يحملون كل مايخرج من تلك المناجم إلى قوندار لتجميره وتصنيعه في شكل أعمدة صغيرة، وحمله في خزن الحكومة ليصرف على الجنود في البلاط الملكي.

---

1 التقراي (Tigrai) يقطنون في الجزء الشمالي من القطر.

2 الأقوس مجموعة من الشعوب البدائية المبعثرة ومازال جزء منهم يحتفظ بلغته الحاميه (Hamitic). عدد كبير منهم يسكن في شمال غرب قوجام (Gojjam). فتوحات هذه المناطق تنسب للإمبراطور سيسنوس (Susenyos) (1604 - 32) ولكن قد يكون الإمبراطور إباسو هو من أخمد التمرد.

3 تسمى ناريا (Narea) أو (Enarea) اناريا وتقع جنوب غرب المملكة.

4 تقع منطقة توجام الحالية (Gojjam) جنوب بحيرة تانا في منعطف النيل الأزرق. ذكر لوبو (ترجمة جونسون) بأنها: هذه المنطقة تسكنها شعوب أقوس (Agaus) ويسمون أنفسهم بالمسيحيين وبسبب التزاوج والتعاصر مع أقوس الوثنيين تبنوا كل عاداتهم واحتفالاتهم. هذين الشعبين أعدادهم كثيرة ومن الشعوب الشرسة والتي لاتقهر ويسكنون قطراً مليئاً بالجبال التي تغطيها الأشجار والكهوف الطبيعية ولذلك نجدهم يتجنبئون داخل هذه الكهوف عندما يعودون من السهول.

تتبع قوة سلطة الإمبراطور من هنا - حيث انه هو السلطة المطلقة وصاحب التصرف في الثروة، وفي رعاياه كما يشاء. وهو يأخذ ويعطي متى ما رأى ذلك مناسباً.

وعندما يتوفى شخص من الرعايا فهو يستحوذ على كل ممتلكاته وثرواته؛ إلا إنه يترك ثلثي الورثة للأبناء الوارثين، ويهب الثلث لأحد خواصه، والذي يُهب هذه الهبة يصبح إقطاعياً وعليه أن يخدم الملك في أوقات الحرب على حسابه، وأن يقدم له العسكر بقدر الممتلكات التي أعطاه إياها.

في كل المديريات توجد سجلات مدونة بها كل الأموال والعقارات التي تخص الدولة بعد موت مالكها، والتي توزع قيماً يعد على الإقطاعيين. ويتم وضع يد السلطان التوزيع كالآتي: يرسل للشخص الذي اختاره شريطاً يربط كعصابة في الرأس من التفقة (شيح حريري) مكتوب عليه بحروف ذهبية (قديس - امبراطور - اثيوبيا - قبيلة بهوذا الذي يهزم أعداؤه دائماً)، يقوم الموظف بربط هذه العصابة بنفسه في رأس الإقطاعي الجديد وفي احتفال. ويذهب مهم بعد ذلك مصحوباً بعازفي الأبواق وضاربي الطبول وغيرها من الأدوات، يحرسهم بعض الخيالة، لتمليكه الإقطاعية التي منحها له الإمبراطور.

اعتاد أحفاد الإمبراطور أن يظهروا للجمهور في أيام معينة، ولكنهم تركوا نظام العبودية للجماهير؛ الذي كان سائداً في ذلك الزمن. فقد يسافر الأمير كما يشاء دون أي احتفال وبدون أن يشعر به أحد؛ وفي بعض الأحيان يقام احتفال، فلا يمارسون العادات والتقاليد القديمة بإصرار. حيث إنه في بعض

الأحيان يظهر في احتفال عام في موكب وحوله عدد كبير من الخيالة في كامل زينة خيولهم، وتحت حراسة ألفي رجل.

الشمس محرقة في أثيوبيا لدرجة أنها تسلخ الجلد من الوجه ما لم يحتاط الفرد ليمنعها.

لذلك فإن الإمبراطور يظلل وجهه بغطاء خاص، عبارة عن لوح من الكرتون في شكل قوس مغطى بمداد مذهبه، ويربط تحت الحنك، تفادياً لاستخدام المظلة، وليستمتع بالهواء أمامه وخلفه[1]. ومن أهم اهتماماته التدريب المنتظم للجنود، وتدريب نفسه على الرماية التي أجادها، حتى إنه اعتبر من أمهر الرماة في بلاده.

تهطل الأمطار في أثيوبيا مدة ستة أشهر، حيث تبدأ في الهطول في أبريل، ولا تكف عن الهطول حتى سبتمبر. الجو يكون صحواً أثناء النهار، ولكن بعد غروب الشمس تبدأ الأمطار[2] في الهطول حتى الصباح مصحوبة بالبرق والرعد. لقد ظل العالم يجد في البحث عن سبب فيضان النيل في مصر في كل عام.

ولقد عزى بعض الناس زوراً ان سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج – غير أني أعتقد أنه لم يكن هناك أي شخص رأى ثلوجاً في أثيوبيا . فليس هنالك من سبب في الفيضان سوى غزارة الأمطار التي تهطل وتتدفق في النيل.

---

1 الشمسية.

2 ذكر بيرنير (Bernier) نفس الشئ (ص 142، 44) ولكن بونسيه لم يهتم بذلك.

وتحمل الأنهار والمجاري المنحدرة من الجبال الذهب الخالص النقي الذي يجمعه الأهالي، وهو يعتبر أجود من ذاك الذي يستخرج من المناجم مباشرة.

ليس هناك بلداً أطيب وأخصب أرضاً من أثيوبيا. كل الأراضي الواسعة والجبال الكثيرة المنتشرة مستثمرة زراعياً. إذ تجد كل السهول مزروعة بالزنجبيل – والحبهان، مما يعطر الجو بالروائح الفواحة. النباتات هنا تعادل في حجمها أربعة أضعاف نباتات الإنديز (Indies).

إن كثرة الأنهار العظيمة التي تغمر أراضي أثيوبيا، والتي تحفها دائماً زهور الزنبق والنرجس والتيولب، وأنواع أخرى من الأزاهير التي لم أر مثلها في أروبا– تفيض على ذلك القطر روعةً وجمالاً، بالإضافة إلى كميات وافرة من أشجار البرتقال الأُترج والريحان وأنواع أخرى عديدة محملة بأزهار الثمار التي تعطر الجو بروائح فواحة، وفي وسط هذه الأشجار هنالك شجرة تحمل نوعاً من الأزاهير رائحتها أكثر نفادية من الأُخر.

لقد رأيت "حيواناً"[1] في غاية الغرابة، وهو أكبر من القط ؛ وله وجه إنسان، وذقن بيضاء – وصوت حزين. وهو دائماً مايكون عالقاً بالاشجار. فعليها وُلد وعليها يموت، وهو مقدس ولذلك لايتآلف أبداً، واذا أخذ خارج بيئته فإنه سرعان ما ينحل ويموت من الحزن والانقباض، فمصيره الموت. أصيب أحدهم بطلق ناري فالتف برجليه حول فرع شجرة إلى أن مات.

---

1 هذا النوع من القرود له ذيل طويل الذيل ومعروف بالقوريزا (Gureza). وأعطي لودوف وصفاً وصورة لواحد من هذا النوع (ص 85) وذكر بأنه مسالم ونشيط جداً وباللغة الأثيوبية يسمى جعز (Giiz) وفي اللغة الأمهرية قوريزا (هو نوع من القشة (قرد أمريكي صغير) وفي اللغة اللاتيينة كلمة (cercopillecas) استخدمها (Juvenal) للقرود الهندية طويلة الذيل.

عندما ينتهي فصل هطول الأمطار يستعد الإمبراطور لحرب أقوى أعدائه – ملك (قالاوشانقالا)[1] (Galla and Changalla). هؤلاء الأمراء الذين كانوا سابقاً ما يتبعون لإمبراطورية أثيوبيا، ولكن استغلوا فرصة ضعف هذه الأمارات، ناصبوها العداء ونالت استقلالها. هذا الإمبراطور دعاها للعودة لسيطرة الإمبراطورية، فرفضت الإذعان له – لذا أعلن الحرب عليها وهزمها[2] في عدة معارك؛ مما أدخل الرعب والذعر فيها بمجرد أن سمعت بأن الجيش الأثيوبي يزعم غزوها، ولجأت إلى الجبال واتخذت حصوناً لحماية الأرواح. هذه من الحروب الفتاكة التي يحدث في بدايتها عدد كبير من الرجال الشجعان. وبما أن الجنود يضعون السم على أسلحتهم، وهو مستخرج عصير ثمار معينة، والتي تشبه العنب الأحمر (الكِشدس) المعروف لدينا، وعندما يجرح الشخص بسهم مسموم فإنه ميت لا محالة – إلا أن الأثيوبين ولفقدهم أرواح كثيرة وبذكائهم وجدوا طرق مؤكدة لوقف تأثير هذا السم القوي العنيف. بوضع معجون يصنعونه من الرمل بعد عجنه بالبول (Sand and urime). الذي يخرج السم بنجاح كبير، لدرجة أن الشخص المصاب قد يتعالج في زمن وجيز.

قبل أن يبدأ الإمبراطور حملته العسكرية، يأمر بأن تنصب خيامه في مكان فسيح على مرآى من مدينة قندار؛ وهي خيام فخمة، والخيمة الخاصة بالإمبراطور من المخمل الأحمر مشغولة بالذهب. وبعد ثلاثة أيام يأمر بأن

1 الغالا (Gallas) وهي من الشعوب الوثنية والجانقالاهم الشانكالا لدى ليدولف (ص 12)، وهي القبائل الدعوية التي تسكن في الجزء الغربي من المنطقة، وأيضاً في سنار بعضهم من أصول زنجية، والبعض الآخر مخلوطون بدماء الغالا.

2 ذكر بدج (المجلد ii، 418) وقعت حملة ضدهم في عام 1699.

تحمل الطبلتين الفضيتين، وتطوف حول المدينة. ويمتطي جواده، وينطلق به إلى (أرنقن Arringon)- المكان الذي تتجمع فيه الجيوش . ويستعرض الإمبراطور جيشه لمدة ثلاثة أيام. بعد هذا يكون في حالة حرب لمدة لاتزيد عن ثلاثة أشهر، عدد أفراد الجيش كبير جداً، حيث إنه كان في سنة 1699م أربعمائة أو خمسمائة ألف رجل.

القصر المشيد في (الرينقون -Arringon)[1] ليس أقل فخامة من المشيد في قندار؛ وفي غياب الإمبراطور عنه يظل خالياً ومهجوراً لحدٍ ما- يترك أربعة أو خمسة آلاف رجل لحراسة التاج؛ وعلى رأس هذه الكتيبة قائد أعلى، قابعٌ في القصر.

لم أرافق الإمبراطور إلى موقع استعراض الجيش نسبة لاعتلال صحتي؛ إلى أن عاد الإمبراطور قبل عدة أيام من احتفالات أعياد الميلاد للعاصمة الرئيسية، والذي يحتفل به في عاصمته بعد عشرة أيام من أثيوبيا – لأن تقويم الأثيوبين وكذلك الشرقين لم يصححوا تقويمهم بعد. ويعتبر عيد الغطاس[2] "Epiphany" واحداً من أكثر الاحتفالات قدسية، ويسمونه Gottas غطاس بمعنى يوم الغسيل. فإنهم يغتسلون فيه في ذكرى السيد المسيح[3]، يذهب الإمبراطور وكل من في بلاطة إلى "كا" (Kaa)، وهو قصر لا يبعد كثيراً من قوندار الذي يوجد به حوضٌ كبيرٌ مملوءٌ بالماء ليفي بغرض هذه الطقوس المقدسة. وفي هذه المناسبة

1 ذكر ماثيو (ص 60) بأن والد إياسو (Iyasu) توفي في قصره الصيفي في أرنجو، ولكنه لم يحدد موقع المكان.

2 (Shitas) هي الكلمة العربية للتعميد وعيد الغطاس هو الكلمة العربية للمفردة Epiphany.

3 أنظر هاملتون (المجلد i، ص 25).

يقدم الإمبراطور ثوراً (ox) لكل ضابط، تبلغ في جملتها ألفي رأس (2000) من الثيران

كنا في أروبا، إلى زمن طويل مخطئين في تصورنا عن مظهر ولون الأثيوبين' والذي نتج عن خلطنا لهم مع جيرانهم النوبيين السود. الأثيوبين سمر البشرة' طوال الأجسام[1]، وجميلو الشكل والمظهر والعيون. ولم تكن أنوفهم[2] وشفاهم غليظة وأسنانهم بيضاء. في حين أن سكان مملكة سنار النوبيون (Nubian) أنوفهم فطساء، وشفاهم غليظة وسود الوجوه.

الأعيان عادة يلبسون ثياب حريرية، أو من قطن ناعم مع شال، والمواطنون يحذون ،حذوهم ولكن لا يلبسون الأقمشة الحريرية والقطنية ليست الناعمة. أما عامة الناس،فإنهم يستعملون قطعتين من سراويل تحتانية يلتحمون بها لتغطية أجسامهم،ولهم طريقة عجيبة للتحية – وهي تقبيل الأيادي اليمنى ويأخذون شالات بعضهم البعض يلبسونها بها لدرجة أن من لم يكن مرتدياً ثوباً أو صديري، يظهر وكأنه شبه عارٍ – عندما يتبادلون التحايا.

الإمبراطور يسمي نفسه (عيسى – Jesus)[3]. رغم أنه لم يتعدى الواحد والأربعين عاماً؛ له أعباء كثيرة. عنده ثمانية أمراء. وثلاثة أميرات. له مميزات عظيمة، فهو سريع التفكير – طيب المعشر ومرح، وله شجاعة الأبطال، وله إشراقات فنية؛ وعلمية، وهو أجمل رجل رأيته

1 بالفرنسية (Bien mangues) بارزة بوضوح.
2 بالفرنسية (le nez bien pis) أنوفهم رقيقة.
3 تولى إياسو الأول (العظيم) على العرش 1682 ثم عزل وقتل في 1706 (ماثيوص 71، لوقراند ص 172، 215، بدج، المجلد ii، ص 408). لاهم الاحداث في عهده أنظر المرجع الأخير.

في ا'ثيوبيا. ولكنَ من أحب الأشياء إليه الحروب. شجاع وبطل مغوار في المعارك ويكون دائماً قائداً في مقدمة الصفوف.

لديه حب للعدالة بصورة غير عادية،لدرجة أنه يحرص على تطبيقها على كل رعاياه، ومع ذلك لايتردد في توقيع عقوبة الإعدام بالنسبة لقضايا القتل. كل هذه الصفات جعلته محبوباً ومهاباً بين رعيته. ولقد سمعته يقول " ليس من العدل في شي أن يقتل المسيحي أخاه المسيح (إلا لأسباب قاهرة ومثبتة).

ولذلك ماكان يحكم بالإعدام إلا إذا ثبت بالدليل القاطع مايوجب عقوبة الإعدام حتى الموت. وعقوبة الإعدام هي (بالشنق Hanging)، أو قطع الرأس. وفي بعض الأحيان تكون العقوبة بمصادرة كل الأموال والممتلكات الخاصة بكل الجناة الذين اشتركوا في الجريمة، أو ساعدوا عليها ؛ ولايسمح للآخرين بمساعدتهم ولاتقديم طعام لهم.هذا الإجراء يجعلهم يهيمون كالوحوش الضارية. وكما أن الإمبراطورعطوفٌ ورحيمٌ. وبما أن الإمبراطور رحيمٌ، فليس من الصعب أن يقدم خدمة لهذه المخلوقات غيرالمحظوظة. إن الأثيوبين عموماً مسالمون وعطوفون. ومن النادر جداً أن تسمع بحدوث جريمة قتل أو أي من الجرائم التي تسبب الذعر في النفوس. بالإضافة للتقوى الدينية، فإن تفشي العدالة في أرجاء الإمبراطورية هو السبب المباشر في استتباب الأمن والتعامل بأمانة بين المواطنين.

أحضرت معي إلي أثيوبيا حقيبة تحتوي على أدوية كيماوية، والتي أخذت مني في إعدادها سبع سنوات لتصير دواء لعلاج الأمراض،ولقد علم بها الإمبراطور، وكيفية التعامل بها، ولم يكتفي بالشرح الشفهي ، بل طلب أن يكون

الشرح مكتوباً. ولقد سرني أنه أعجب بالتجارب العملية التي أجرتيها وأطلعته على تركيبة ترياق (Bezoars)[1] والتي استخدمتها لعلاج (الحمى المتقطعة)، والتي كان مصاباً بها الإمبراطور وإثنين من أبنائه الأمراء، وكان ايضاً متشوقاً لمعرفة الطريقة التي استخلص بها العطور، ولهذا فقد أرسلني إلى (تزمبا – Tzemba)، وهو دير أقيم على ضفاف نهر (رب – Reb) على بعد نصف فرسخ من قندار. يكن الإمبراطور شعوراً بالمودة والاحترام للراهب لعلمه وإخلاصه، فاستقبلني رئيس دير الرهبان بكل مودة واحترام، وهو يبلغ من العمرمائة عام. وأحد أكثر الناس علماً في أرجاء الإمبراطورية. قمت بتجهيز مواقدي، وكل ما احتاجه، ولقد حضر الإمبراطور هناك متنكراً (Incognito)، وقمت بعدة تجارب؛ واطلعته على خفاياها وأسرارها التي كان متلهفاً على معرفتها ؛ حيث إني كنت راغباً في أن يكون كل من يرغب في التعامل مع الأدوية في أثيوبيا أن يلجأ إلى الأدوية الكيمائية بدلاً من المشروبات المصنعة عشوائياً والتي تفوح منها روائح الكحوليات التي لاتفسدها شدة الحرارة الجوية. بينما المواد المستخلصة من النباتات والكحوليات تعالج دون أن تفسد، ويمكن أن تحفظ بالرغم من الحرارة.

في خلال ثلاثة أسابيع التي قضيتها مع الإمبراطور، طلب مني أحد الأمراء – وهو مهتم بالمعرفة الدينية – وطلب مني أن أوضح له الفرق بين عقيدتنا وبين عقيدة الأقباط السائدة في أثيوبيا. وحاولت أن أقنعه بقدر المستطاع

---

1 حصاة كلسية توجد في أجسام بعض الحيوانات "خاصة الأغنام" وتستخدم بصورة رئيسية كترياق مضاد للسموم.

– خاصة، وأني لم أكن متعمقاً في الدراسات الدينية. فذكرت له بأني أحضرت لهم معي عالماً علامة في علوم الرياضيات والدين. عندما قلت ذلك؛ صرخ الإمبراطور متأوهاً بأعلا صوته، وقال لي في صوت حزين – "إنني أصبت بخسارة بالغة". فلابد لي من الاعتراف بأني شعرت بأن قلبي يدمي عندما علمت بأني فقدت رفيقى الأب (دي برفدنت)، والذي كان رجل مواقف مشهورة، وكان يستطيع أن يؤثر على هذا الأمير العظيم، ويحوله إلى تعاليم الكنيسة " الكاثوليكية – Catholic Church)[1].

كان معي في ذات يوم رئيس دير الرهبان ومترجمي جالسين مع الإمبراطور، عندما مر علينا الأمير، وطلب مني أبلغ سلامه وأزكيه للمسيح – مأ أخبرته بأننا لا نؤمن بأن الطريقة البشرية للمسيح تفقد وتزول في الطبيعة الإلهية كما تذوب قطرة ماء في جوف البحر. "وهذا هو إعتقاد الأقباط والأثيوبين – والإمبراطور"، ولكننا نعتبره صاحب الكلمة والشخص الثاني للعبادة الالهية في شخص إنسان، والذي نسميه (عيسى المسيح)، وله صفتان – صفة الروحانية المطلقة، وصفة البشر التي ظهر فيها كرجل حقيقي؛ ليقدم بدنه المادي للتعذيب والموت – إنقاذاً للبشرية جمعاء ؛ بعد حديثي هذا، شعرت أن الإمبراطور ناقش كبير الرهبان ؛ وحسب اعتقادي بأنهم لايختلفان مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. فمنذ ذلك الوقت؛ أصبح كبير القساوسة أكثر وداً معي من ذي قبل . وأثناءوجودي في (تزامبا – Tzemba) مع الإمبراطور، كانت إحدى تسلياته أن

1 مسألة كثر الجدال عنها في الكنيسة الحبشية في ذلك الزمان (ماثيو، ص 13، 63).

يرى الغلمان يمتطون صهوة الجواد العظيم ويمارسوا تمارينهم التي خيروها تماماً.

من (تزمبا – Tzemba) إلى منابع، النيل لاتبعد المسافة عن ستين فرسخاً فرنسياً.

وكانت لي رغبة ملحة لزيارة هذه المنابع حيث يدور حولها لغوٌ كثيرٌ في أوربا؛ فلقد عين الإمبراطور فرقة من الخيالة لمرافقتي لتلك الرحلة، ولكني لم أوافق للقيام بهذه الزيارة، نسبة لألام ألمت بي في صدري. فطلبت من مراد (Mourat) – أحد رؤساء الوزارة وعم ذلك السفير الذي تحدثت عنه – ليمدني بمعلومات عن هذه المنابع. مراد هذا رجل كبير في السن ومحترم جداً، ويبلغ من العمر مائة وأربعة اعوام ، عمل لأكثر من ستين سنة في مفاوضات المغول وبلاط الإنديز (Indies)[1]. الإمبراطور يحترمه ويجله لدرجة إنه يناديه – (بابا مراد – Baba Mourat)[2]. لنرى ماذا قال هذا الوزير عن تلك الينابيع[3]؟

---

1 سفارة الحبشية إلى أرانقزيب (Aurangzeb) في (1663- 65) لتهنئته باعتلائه العرش وصفها ما نوسي كما ذكر مانوسي (Manucci) (المجلد ii، ص 110) وتافرنير (Tavernier) وآخريين. ولكن الوصف الأفضل لهذا الحدث ذكره بيرنيه (Bernier) (ترجمة كونستابل، ص 133). هنالك سفيرين احدهما تاجر مسلم، والآخر ارمني مسيحي، ولد وتزوج من حما ويعرف في أثيوبيا بمرات (مراد). والأخير قابله بيرنيه في موشا (Mocha) [المقصود منحا (المراجع)] في رحلته الخارجية وذكر أن هذا الأرمنى يرسل سنوياً من قبل النجاشى وهو محمل بالهدايا للشركات الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية في شرق الهند ويعود إلى النجاشي وفي معيته الأغراض التي أعطيت له في المقابل.

2 بابا كلمة تركية تستخدم (للأب) (تستخدم أيضاً في العربية المصرية).

3 الترجمة الغربية للمعنى (قام بفحصهم بعناية). من الممتع أن تقارن الرواية في النص برواية بيرنيه (ترجمة كونشابل، ص 141) في دلهى التي أسرها له مراد وزميله السفير. والاثنان كانا في منابع النيل الأزرق، ويقول بيرنيه هذا يؤكد ماذكره سابقاً في (Mocha) (اطلعونا بأن نهر النيل منابعة في منطقة اقينز (ينبغي أن يكون اقوس)، فهو ينبع من نبعيين متقاربين ميت يكوّنا بحيرة صغيرة طولها يترواح ما بين الثلاثين إلى الأربعين خطوة والمياه الخارجة من هذه البحيرة تكون نهراً معتبراً يتوسع في حجمه بواسطة الروافد التي تصب فيه. أضاف بأن النهر يستمر في سريانه في شكل دائرى مكوناً جزيرة كبيرة وبعد انحداره من عدة

"في مملكة "قويام -Goyame" جبل شاهق، في أعلا قمته ينبوعان ممتلئتان بالماء، أُحدهما من جهة الشرق والأخر من جهة الغرب؛ يخرج من كل منهما نهر يتجه نحو وسط الجبل، ويترسبان في أرض مستقعات إسفنجية مغطاة بالخيزران والأعشاب. وتختفي المياه إلى مسافة عشرة أو إثني عشر فرسخاً. ثم يتحدان مرة أخرى مكونان نهر النيل الذي يتضخم بالمياه التي تأتيه من الأنهار الأخرى العديدة. ومن الغرائب أن هذا النهر يمر على أواسط بحيرة دون أن تختلط مائؤه بمائها. هذه البحيرة الكبيرة يعرفونها باسم (بهال ديمبى- Bahal Dembea) - (Sea of Dembea)[1]. والمنطقة حولها جميلة جداً.

لاترى من حولها سوى المروج وغابات الغار الزاهية في الخضرة والروعة. يبلغ طول البحيرة حوالي مائة فرسخ، وعرضها حوالي خمسة[2] وثلاثين أو أربعين فرسخاً. ماؤها عذب ولطيف المنهل، وأخف كثافة من ماء

صخور يدخل في جزيرة كبيرة (بحيرة تانا) حيث توجد بها عدة جزر خصبة ومجموعات من التماسيح وهذه المعلومة جديرة بالملاحظة. هنالك أيضاً عجل البحر. تقع هذه البحيرة في منطقة دومبيا (Dumbia) التي تقع على مسافة ثلاثة مراحل قصيرة من قندر وما بين أربعة إلى خمسة أميال من مبنع النيل. وسيكون جديراً بالملاحظة ما إذا كان عجول البحر توجد في الجزيرة الداخلية، ولكن قد يكون من المحتمل هذا المصطلح الذي استخدمه (Bernier) (المترجم) ليس يقصد به عجول البحر بل يقصد به فرس البحر. ذكر لوقراند وصف لوبو وبدرو بيز اليسوعى لهذه المنابع (ص 106) (ص 109) ويعتبر بدرو بيز اول أوربي زار هذه المنابع في عام 1618. أكد لودولف (ص 39) روايات بيتر حول شهادة جريجوري الأثيوبي. وبالطبع الوصف المشهور هو وصف بروس. للمزيد من الوصف الحديثة أنظر مقال بيك في (Geographical Journal 1844) وأيضاً كتاب المجور شيزمان.

1 وهي بحيرة تانا المشهورة. توضح خريطة لودولف النهر وهو يعبر البحيرة. وأما بروس اسماها (بحر تانا) بدلاً عن بحيرة تانا.

2 احدث المقاييس هي: اقصي مدى للطول، 47 ميلاً، اقصى مدى للعرض، 44 ميلاً، المساحة، 1,100 ميل مربع، هذه التفاصيل أوردها الميجور شيزمان في كتابه بعنوان "بحيرة تانا والنيل الأزرق".

النيل. توجد جزيرة في وسط البحيرة أقام عليها الإمبراطور قصراً منيفاً، ولايقل فخامة عن ذلك القصر المقام في قندار - رغم صغر حجمه[1].

ذهب الإمبراطور إلى هناك، وكان لي شرف مرافقته؛ ذهب على ظهر زورق صغير يقوده ثلاثة بحارة. أما أنا ومراد - ابن أخ الوزير، فذهبنا على زورق آخر لايتسع لأكثر من ستة أشخاص[2]. وهذه الزوارق مصنوعة من حزم الحصير والقصب، ولا تغطى بالغار، وبالرغم من ذلك لاتتخللها المياه. لقد مكثنا في ذلك القصر مدة ثلاثة أيام، أجريت خلالها تجارب كيميائية أعجب بها الإمبراطور. هذا القصر له سور من حائطين، وكنيستين للعبادة. يخدمهما رجال الدين الذي يعيشون في ذلك المجتمع، احدى هذه الكنايئس مكرسة للقديس كلاود (St. Claude)، وسميت الجزيرة بهذا الاسم أيضاً (The Isle of St. Claude)[3]، ومساحتها فرسخاً (League) واحدٌ تقريباً. علم الإمبراطور بأن أربعة من حصين النهر (River horses) "فرس البحر"- (Hippos)` قد ظهرت في البحيرة، فذهبنا لمشاهدتها لمدة نصف ساعة. فوجدناها تارة تدفع الماء أمامها، وتارة أخرى تغوص داخل الماء. جلد اثنين منهم أبيض واثنين جلدهم أحمر[4]، ورؤوسهم مثل رؤوس الجياد، ولكن آذانهم قصيرة. وهي من

---

1 ذكر شيزمان القصر الصيفى لـ (Isasu) في شيكلا مانزو، ولكنه ذكر بأن هذه الجزيرة تبعد حوالى نصف الميل من البر الرئيس. أغتيل الإمبراطور وهو مريض بواسطة الرُسل التابعين لأبنه المتمرد، مازال قبره موجود على جزيرة ميترا (Mitraha).

2 عبارة عن قوارب صغيرة مصنوع من نباتات عشبة البرك السميكة (ليدوف ص 45). وذكرها أيضاً الفارز (Alvarez) في كتاباته عن البحيرة (ص 150) ومازالت مستخدمة.

3 ذكر لودلف (ص 45) إسم احد عشرة جزيرة ولكن ولا واحدة تشابه هذه، وذكر أيضاً أن كل هذه الجزر يسيطر عليها الرهبان ماعدا جزيرة واحدة.

4 هذا بالطبع خطأ، لأن اللون الحقيقي هو البني الغامق بالرغم من أنه على البعد ومع إنعكاس أشعة الشمس على السطح المائي يُرى بأنه ابيض أو أحمر.

الحيونات البرمائية[1] (amphibious). فهي تخرج من النهر لتتغذى من على الأعشاب التي تنبت على شواطئ الأنهار، وفى بعض الأحيان تحمل الماعز والضأن لتأكله. جلدها مفيد، حيث يصنع منه الدرقات (Bucklers) التي برهنت قوتها ضد بنادق المسكيت والرماح. كما يأكل الأثيوبيون لحومها. ويتم ذلك كالأتي: حالما يكتشفون وجود أحدها، فإنهم يتبعونه ويقطعون أرجل هذا الحيوان بالسيوف، فلا يستطيع السباحة، فيبقى على الشاطئ ينزف دمه إلى أن يموت. أمر الإمبراطور بإطلاق مدفع تجاه هذه الحيوانات، ولكن قلة الذكاء في الإطلاق أدى لأن تغطس الحيوانات واختفت من الماء.

من جزيرة القس (كلاود) ذهب الإمبراطور إلى (أرينغتون Arrington) قصر الحرب الذي ذكرته من قبل الطريق إلى (إمفراس Emfras) التى تبعد مسيرة يوم عن قندار؛ وهى ليست مدينة بحجم قندار؛ ولكنها رحبة، وعلى موقع حسن، منازلها مبنية بطريقة أفضل منفصلة عن بعضها البعض بسياج من الشجيرات دائمة الخضرة - كما بها حدائق - مغطاة بأنواع الزهور المختلفة الألوان. وضواحيها من حولها جميلة للغاية وزاهية الإشراق. هذه هي الفكرة التي يجب أن تكون عن أجزاء كبيرة من المدن الأثيوبية.

أقيم قصر الإمبراطور على مكان واضح المعالم، ومشرف على كل معالم المدينة. مدينة (إمفراس) اشتهرت بتجارة الرقيق وعطر الزباد (Civet).

1 فرس البحر ليس من الحيوانات آكلة اللحوم: ذكر لودولف (ص 61) بأن عدداً كبيراً من هذه الحيوانات موجود في بحيرة تانا وهي تغزوا الحقول المجاورة باستمرار، وتسبب أضرار كبيرة بالحبوب. وهي أيضا تتسبب في قلب القوارب الصغيرة وتعترض الممرات المائية وتجعلها غير آمنة بالنسبة للسكان وفي احايين كثيرة تهجم عليهم. بعض من الفقراء يصطادونها ويقتاتون من لحومها. تستخدم جلودها السميكة لعدة أغراض وبخاصة في صناعة الدروع.

الأهالى يهتمون بتربية "قط الزباد"، حتى إن أحدهم ربما يمتلك حوالى ثلاثمائة من هذا الحيوان الذي يستخرج من عرقه أجود أنواع العطور الذي يحفظونه في قرون البقر. وهو نوع من القطط الذي يغذى بصعوبة، حيث يقدم له لحم بقر ثلاث مرات في الأسبوع، وفي الأيام الأخرى يقدم حساء اللبن، ويعطر الحيوان من وقت لآخر بروائح جميلة، ومرة كل أسبوع تكشط مادة تخرج من جسده مع العرق.

وصلت (أمفراس) فى موسم حصاد العنب الذي يجمع في فصل الخريف كما فى أروبا – ولكن شهر فبراير. رأيت هنالك عناقيد العنب، يزن الواحد من حوالي(8)أرطال، وكل حبة عنب في حجم الجوز، والعنب بألوان مختلفة. لديهم العنب الأبيض، ورغم حلاوة طعمه، فإنهم لا يحبونه. وقد سألت عن السبب، ومن خلال إجاباتهم خمنت أنه لكراهيتهم للون الأبيض، لأنه لون "البرتقاليين". وكان رجال الدين (الأثيوبيون) يبثون الكراهية والاحتقار (للأوروبيين) والجنس الأبيض.

أمفراس هي المدينة الوحيده فى أثيوبيا التي يمارس المسلمون فيها شعائرهم الدينية بحرية، ومســـاكنهم مختلطة مع مســـاكن المسيحيين.

الإثيوبيون ليس للواحد سوى زوجة واحدة[1]؛ ولكنهم يرغبون فى أكثر من واحدة إذا وجد في أحد أجزاء الإنجيل سبيلاً إلى ذلك. عندما كنت مع الإمبراطور فى (تزامبا) سألني عن رأي في تعدد الزوجات، فأجبته بأنه ليس ضرورياً للرجل، ولا يرضي الرب. إن الرب خلق زوجة واحدة فقط (لآدم)،

1 ذكر هاملتون (المجلد i، ص 25) بأن لديهم زوجة واحدة ولكنهم يتمتعون بالخليلات.

وإن المخلص لمنح بذلك عندما أخبر اليهود أن موسى لم يسمح بتعدد الزوجات لا لقسوة قلوبهم ولكن من البداية لم يكونوا كذلك، ومنقذنا استجاب له. فالمسيحية في اثيوبيا صارمة تجاه تعدد الزوجات[1]. ولكن القضاء العام أكثر تسامحاً.

الأثيوبيون يعتنقون المسيحية ويعترفون بالإنجيل والقربان المقدس ويؤمنون بتحويل القربان "الخبز والخمر" داخل الجسم، ودم السيد المسيح، ويتوسلون بالقساوسة كما نفعل نحن، ويتواصلون تحت نوعي خبز القربان المقدس وخمرة مثل الأغريق. كما يحترمون أنواع الصيام الأربعة الكبرى وهي: الصوم الأكبر: الذي يستمر(50)يوماً، وهو صوم القديس بيتر، والقديس بول، والذي يستمر أحياناً لمدة أربعين يوماً، وأحياناً أقل (كما في عيد الشرقيين). وعيد رفع السيدة العذراء للسماء، وهو (15) يوماً، ومجيء المسيح للعالم، ويستمر لمدة ثلاثة أسابيع، و في كل هذه الأنواع من الصيام يمتنعون عن تناول البيض والزبد والجبن، ولا يأكلون إلا بعد غروب الشمس، وبعدها يمكنهم مواصلة الأكل حتى منتصف الليل. مع عدم وجود شجرة زيتون في أثيوبيا، وهم مجبرون على استخدام زيت يستخرجونه من نوع من الحبوب في بلدهم طعمه جيد.

كما يصومون كل أيام الأربعاء والجمعة طول العام، (Great Lent). تقام الصلاة قبل الوجبة، ولذا قبل ساعة من غروب الشمس يترك المزارعون أعمالهم ليذهبوا للصلاة، ولا يأكلون قبل أداء ذلك الواجب، ولا يعفى أحد من

1 اخبر مراد الكبير السيد بيرنير بقصة مختلفة من دلهي (ص 142) بأن القليل من الناس في اثيوبيا من يحتفظ بإمرأة واحدة واعترف هو نفسه بأن لديه زوجتان بجانب زوجته الشرعية الموجودة في أليبو وهو لا يخجل من ذكر ذلك.

الصيام الصغير والكبير، وحتى المرضى مضطرون لأدائه. ويعضي الصغار من سن العاشرة، وبعدها يجبرون على الصيام.

الاعتراف بالذنوب يتم بطريقة غير سوية، وهي كالاتي: يسجد ويلقى بجسمه كل من أراد أن يعترف بخطيئة أو ذنب ارتكبه تحت أقدام القديس أو الراهب الجالس، ويتهمون أنفسهم بصورة عامة بأنهم خطاؤون ويستحقون جهنم دون الخوض في الذنوب التي ارتكبوها. بعد إعلان هذا للقس يمسك الأخير الإنجيل في يده اليسرى والصليب في يده اليمنى. يلمس بالصليب عيون، وآذان، ،وأنف وفم التائب تالياً بعض الصلوات. بعد التلاوة يؤشر بالصليب فوق المذنب ويعطيه الكفارة ويطلقه.

الأثيوبيون لهم احترام وتقديس عظيم للكنيسة أكثر مما نجده في أروبا، يدخلونها وهم حفاة الأرجل، ولهذا فهي مفروشة بالبساط ولا يتكلمون إلا بالهمس ولا يتمخطون ولا يلتفتون على جنوبهم. ولابد من أن يكونوا نظيفي الملابس؛ وألايمتنعون من الدخول. بعد تأدية المناسك ينصرفون ولايبقى أحد سوى القساوسة. ولا أدري إذا ما كانوا يفعلون ذلك من باب التواضع أم، لاعتقادهم بأنهم لا يستحقون أن يشاركوا في الأسرار الإلهية.

الكنائيس المرتبة جداً يستخدمون الصور والرسومات، ولكن لا نرى أبداً تماثيل أو صور منحوتة. وبالرغم من ذلك فقد تقبل الإمبراطور مسروراً الصليب (عليه تمثال المسيح) ذا الزخارف البارزة الذي كان لي شرف تقديمه له مع بعض الصور، وقبَّلها بكل احترام (respect Kissed it with)، وأمر بحفظها في محفظة. كانت الصور لقساوسة ورهبان؛ طلب أن تكتب أسماؤهم

باللغة الأثيوبية. ومنذ تلك اللحظة قال: "إننا جميعاً على دين واحد، ولربما نختلف في الطقوس أو الشعائر".

إنهم يطلقون دخان البخور المعطر خلال القُداس والشعائر الدينية. وبالرغم من أنه ليس لديهم نوتة موسيقية، إلا أن أغانيهم جميلة، ويستعملون معها بعض الآلات الموسيقية. يقوم المتدينون مرتين ليلاً لترتيل المزامير. أما خارج الكنيسة، فإنهم يميزون بغطاء الرأس الأصفر والأزرق الذي يضعونه على رؤوسهم. هذه الألوان تميز الرتب المختلفة. وهم محترمون جداً في أثيوبيا.

ظل الأثيوبيون يحتفظون بالختان اليهودي (Jewish circumcision)، إذ يختنون الطفل فى اليوم السابع من ميلاده، وبعد ذلك يعمدونه ما لم يكن هنالك خطر موت. وفي هذه الحالة لا يؤجل التعميد. لا يعتبر الختان قرباناً مقدساً ولكنه مجرد طقس يمارسونه يقلدون به المسيح عيسى الذي نعطف وختين، ولقد أكدوا لي بأن البابوات السابقين قد أجازوا استخدام الختان في أثيوبيا، مع توضيح أن الختان ليس ضرورياً للخلاص.

فى إمكانى أن أذكر أشياء فى غاية الغرابة تحدث فى أثيوبيا، ولكن لعدم تأكدي منها، فاحجم عن التطرق لها، لأني لَم أرها بل ولم اجد مايوثقها لي.

لما شعرت بتدهور في قواي الجسمية، وفى صحتي العامة، قررت أن أعود إلى فرنسا بعد أن أستاذن من الإمبرطور للمغادرة. فقد قدر ظروفي وتعاطف معي، وخوفاً من أن يكون السبب هو المعالمة أمر بان تحُسنْ معاملتى. وعرض عليّ المنازل والأراضى والإقامة المستديمة، وكل الإغراءات المجزية – إلا أني اعتذرت نسبة لاعتلال صحتي العامة، وخطورة مرضي الذي أوشك

إن يؤدي بحياتي في باركو (Barko) رغم الأدوية والاحتياطات التي أخذتها للعلاج. فلا بد لى من استنشاق هواء البيئة التي نشأت فيها، وإني سوف أفقد حياتي إذا ما استجبت لرغبة هذا الأمير الودود.

فالإمبراطور رغم وده وعطفه استجاب لتوسلاتي، بشرط أن أعود إلى أثيوبيا متى ما بلغت الصحة والعافية، على أن يكون هذا الوعد موثقاً بقسم على الإنجيل.

الود والاحترام الذى يكنّه ملك فرنسا؛ يعزى لما نقلته له عن ملك فرنسا، مما جعله يميل إلى التحالف معه – خاصة وأن شهرته قد طافت الآفاق. لهذا فسوف يرسل له سفيراً محملاً بالهدايا. وقد وقع اختياره – على أبونا جريقوريوس– (Abona Gregorios)[1]، ولذلك الغرض طلب مني أن أعلمه اللغه اللاتنية، وتعلمها في وقت وجيز لذكائه، ولإجادته للغة العربية[2]. ولما كان الأثيوبيون يفضلون تعيين الأجانب سفراء لبلادهم، فلم يجد الوزير مراد حرجاً فى تعيين إبن أخيه سفيراً فى فرنسا. فأعلن الإمبراطور تعيينه على الملأ، وأمره بأن يجهز الهدايا– وهي عبارة عن: فيلة، خيول وأطفال أثيوبيين إلخ.

كنت على مقربة من الإمبراطور، وعلى مدى قريب من مسمعه، حينما استدعي أصغر أبنائه من الأمراء، وكان عمره لا يتجاوز الثامنة أو التاسعة، وقال له إنه يفكر في إرساله إلى فرنسا، وهي أجمل وأرقى بلاد العالم. فبادره الابن بقوله: إنها لصدمة شديدة على نفسه أن يفترق عن والده، لا يمتنع عنها إذا

---

1 من المحتمل أن يكون خطأ ويقصد (Abba) (المرجع السابق نفسه ص 153).
2 مما لاشك فيه أن بونسيه خبير بتلك اللغة لأنه قضي عدة سنين في القاهرة.

ما كانت هي رغبة والده، ويتقبلها بكل طيب نفس وانشراح. وسألني الإمبرطور عن كيفية التعامل معه في البلاط الفرنسي؟ فاحبته بأنه سوف يعامل كأعظم وأقوى أمير إفريقي. فأجاب الإمبراطور بانه مازال صغيراً، وسوف تكون الرحلة شاقة بالنسبة له. وعندما يكبر ويشتد ساعده سوف نبتعثه.

بعد تحديد مواعيد المغادرة قابلني الأمبرطور وأعطاني الإذن رسمياً، وأقيمت المراسم العادية. وأعطاني بعد ذلك عباءة الاحتفال، وفي وقت العشاء شرفني بأن جعل طاولتي بالقرب منه، ولكن في ارتفاع أقل. وبعد الاحتفال أحضر أمين الخزانة عقداً ذهبياً قلدنيه الإمبراطور في معصمي على أصوات الأبواق ودقات الطبول، وكان هذا تكريماً للأمير الأوروبي عندما يقلدونه وسام الفروسية. وبعد العشاء أمر الإمبراطور أمين الخزينة أن يمدني بكل ما أحتاج إليه.

في اليوم الثاني من مايو 1700 تقرر سفري، وعُين لي حرس تكون من ضابط ومائة من الخيالة يأخذونى إلى خارج حدود الإمبراطورية، ومترجم ملم بكل لهجات المناطق التي سوف يمرون عليها. لأن لكل مقاطعة لغتها الخاصة. ولقد انضم إلينا عدد من التجار المسافرين إلى مصوع؛ حيث إن الرحلة مؤمنة بالحراسة.

بالرغم من إصرار السفير مراد على مغادرتي خوفاً من الأمطار التي بدأت تهطل ليلاً، ولكنه سوف لايرافقني، لأن الإمبراطور أمره بذلك؛ واتفقنا على أن نلتقي في (ديوفارنا Duvarna) ثم نواصل رحلتنا من هنالك.

كان لزاماً على ألا أبارح حتى أودع الإمبراطور الوداع اللائق به، على ما قدمه لي من عطف وآلاف الحسنات والمكارم التي شملني بها، وألم الفراق الذى أحاط به – وأقر بأن نفس المشاعر تملكتنى. ولا بد لى أن أذكر مرافقة كبار اللوردات مسافة فرسخين – حسب تعليمات وتوجهات الإمبراطور.

بدأنا السفر من مدينة انفراس، وكان قائد المسيرة يتقدمنا بمقدار ساعة قبل وصولنا المنزل الذي سوف ننزل به، وهو ينزل عادة في منزل المدير أو رئيس المنطقة، ويعرض عليه الأوامر المكتوبة الصادرة من البلاط الملكي[1]، ومكتوبة على رقاع (من الجلد)، توضع الرقاع داخل ثمرة قرع صغيرة تربط في عنق الرسول بخيوط حريرية. وأول وصول الرسول يلتقي زعيم المدينة أو المنطقة أمام بوابة منزل الحاكم، حيث يقوم الموظف الرسول بحل رباط القرعة أمامهم، ويأخذ معه الرقعة الجلدية، والتي تسمى (Atitteses) تعني أمر الإمبراطور. مشيراً إلى مستلم الرسالة بأنه إن لم ينفذها بحذافيرها فسوف يفقد رأسه في المقابل، وهذا الشرط يكتب بأحرف حمراء.

وعندما يستلم المدير الرسالة الواردة إليه، فإنه يضعها فوق رأسه، دلالة على الاحترام والطاعة. تم بأمر بدافع كل نفقات ومتطلبات الضباط ورفقائه في القافلة في كل الأماكن التابعة للحكومة. لقد استغرقت الرحلة يوماً كاملاً بين

1 ذكر الكولونيل عيدي (Eadie) بأن (Ate) دائماً يتبعها اسم الإمبراطور وأن الترجمة الموجودة في النص خاطئة من المحتمل أن (heses) تعنى (Izz) (رتبة) (order) وإذا كان الأمر كذلك، فإن هنالك اسم محذوف.

(قندار وأمفراس) استغرقن بين جبال شاهقة[1]. فوق الجبال يوجد دير فيه كنيسة مكرسة باسم (القديسة آن – St. Ann)، ولهذا المكان أهمية وشهرة خاصة، ويحجون إليه من أماكن بعيدة. في هذه الكنسية ينبوع صافٍ من المياه يشرب منه الحجاج من أجل التبرك. ويعتقدون أنه من المعجزات، ومن كرامات (القديسة آن – ST Ann) التي يدين لها الأثيوبيون بالولاء.

وصلنا (إمفراس – Emfras) في الثالث من مايو، ونزلنا فى منزل مراد الأكبر، ولقد أكرموني، وقاموا بتسليتي بحفلات الموسيقى المستخدم فيها القيثارة، ونوع من الكمان تشبه ما لدينا. وقد غنوا بعض المقاطع تكريماً لي، وقدموا عروض ألعاب سحرية، بعضهم يرقص بإيقاع سريع على أنغام الطبول، ولأنهم رشيقين ونشيطين، فإنهم يقومون بحركات عديدة، وأوضاع متنوعة أثناء الرقص. وآخرون يحملون سيوفاً وتروس في تمثيل لحالة الحرب، ويرقصون بمرح وبصورة لا يصدقها الإنسان إلا إذا رآها. أحضر لي أحد الراقصين خاتماً، وطلب مني أن أخفيه بنفسي، وأن أعطيه لشخص آخر ليخفيه، وسيقوم بإخباري بمكان الخاتم. فأخذته وأخفيته بنفسي بصورة جيدة، لدرجة أنني ظننت أنه من المستحيل أن يخمن أين أخفيه. وبعد لحظة دهشت عندما اقترب مني هذا الرجل راقصاً، وهمس في أذني بأنه قد تحصل على الخاتم، وأنني لم أخفيه جيداً. ولقد طلب مني أن أزور شخصاً هاماً مريضاً. وقد همس لي أحدهم بكلمة Mich بمعنى أنه أصيب بروح شرير، وفي ذلك الوقت كنت في قندار،

1 يعتقد بروس (المجلد iii، ص 499) أن ذاكرة بونسي قد خذلته لأنه لم يذهب إلى أمفراس (Emfras) ولا غلى كوقوا (Cogoa) في تلك الرحلة لأن هذين المكانين غير واقعين في الطريق الذي سكله. قد يكون هذا الخلط نتج عن سبب لم يفسر.

وسمعتهم يتحدثون عن ذلك المرض. وقد طلب الإمبراطور شخصاً رائيّاً، ولأكثر من مرة، في هذا الأمر. وكانت إجابتي على هذه التساؤلات بأن الله لم يطلق الشياطين لتعبث بالبشر، لكنها عقوبة للفاسقين ليدركوا قوة الخالق[1].

من أيغرس توجهنا نحو (كوقار Coga) التي نزلنا فيها، وكانت هي في سابق الأزمان مقر سكن الإمبراطور الإثيوبي، ورغم انها مدينة صغيره. إلا أنها تمتاز بموقع جميل، والريف من حولها لطيف جداً. ونزلت في منزل مدير المديرية الذي رحب بي، واكرمني بالقدر نفسه الذي بدر من المديرين ورؤساء العشائر الذين سبقوه أثناء زياراتي لهم. في هذه المدينة صدرت التعليمات للقرويين بأن يحملوا أمتعتنا إلى الحدود.

نسبة لضعفي الشديد، واعتلال صحتي فلم أستطع أن أدوّن ملاحظاتي كما كنت أرغب ثم أمضينا سبعة أو ثمانية أيام في مديرية (أوقارا ogara)[2]، حيث كان جوها لطيفاً، ودرجة الحرارة فيها أقل بالنسبة لموقعها على جبال عالية. وقد أخبروني عن وجود جليد في بعض أشهر السنة. ولم أجرؤ على مواصلة العيش هنالك للتأكد من المعلومة. توجد وسط هذه الجبال منازل بنيت من الصخور، وأروني مكان تحجر بعض صغار السن من الذين كانوا يبحثون عن المتعة واللهو، وقد حكوا لي مؤكدين أن هؤلاء الشباب المتحرر تحجروا في الوضع الذي كانوا عليه، واعتقد أن هذه الأشكال هي متحجرات طبيعية.

---

1 وردت هذه السطور في النص الفرنسي هكذا: لدينا علاج ناجع بإشارة الصليب وأن ليس للشيطان سلطان على المسيحي الملتزم. وفي الحالات مثل هذه فإن تعويذات الكنيسة الكاثوكية لشئ ضروري للعلاج. يشاهد المرء في هذه البلدان المنشقة الأثر الفاعل للصلوات التي تقوم بها الكنيسة في مثل هذه الحالات.

2 تقع جنوب تقراى وشرق باقمدير.

وسط هذه الجبال عدد من المنازل تمتد كمدينة، وهي دائرية السقف في شكل قمع مقلوب من نبات الأسل أو السمار[1] تدعمه الحوائط التي ترتفع لحوالي 10 أو 12 قدم من الأرض. داخل المنازل مرتب ومزخرف بالخيزران الهندي. توجد الأسواق من كل مكان، حيث تباع كل أنواع المؤن والمواشي، ويعج البلد بالناس.

عندما خرجنا من مديرية أوقارا (ogara) دخلنا في سيرى (siry)[2] التي يتحدثون فيها بلهجة (التقري Tigra). قبل أن نصل سيري وهي عاصمة المديرية، مررنا على نهر (تكسيل tekesel) وهو سريع التيار، وعرضه يبلغ سبعة اضعاف نهر السين في باريس (paris)، ولعدم وجود قنطرة، فيعبرونه بواسطة القوارب.

هذه المديرية من أجمل الأماكن التي رأيتها في أثيوبيا، ومن أخصب البقاع، وبها كثير من النوافير والينابيع وغابات واسعة، من أشجار البرتقال وأشجار الموالح بجميع أنواعها وأشجار الرمان – الأشجار كثيرة وعادية لدرجة أنها تنمو دون رعاية أو زراعة. كما تعطي الحقول أزهار التيولب والقرنفل والزنبق وأشجار الورود (المحملة بالوردة الحمراء والبيضاء) وآلاف من أنواع الورود الأخرى الغير معروفة بالنسبة لنا، والتي تعطر الجو بشذى أقوى وأكثر نفاذاً من المناطق الجميلة التي تراها في بروڤانس.

---

1 الأسل أو السمار نبات تستخدم أوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي.

2 شير خط عرض ´15 °14 وخط طول ´15 °38 حسب رواية بروس فإن المنطقة التي تحمل هذا الاسم (تمتد من أكسوم إلى تاكاز). وأن مدينة (Sire) تقع على حافة وادى شديد الانحدار.

يمتلك الضابط المرافق لنا في هذه الرحلة قصراً فخماً في هذه المديرية، واستضافني معه ثمانية أيام. وقد لاحظت أثناء إقامتي هناك أن الورم الذي كان في سرتي قد بدأ يختفي، ولطافة الجو فتحت شهيتي، وأضفت عليّ نوعاً من البهجة والسرور. وحينما كنت في هذا القصر، أمر الإمبراطور بإحضار فيل ليحمله السفير معه إلى فرنسا، ويقدمه للملك هدية من الإمبراطور.

من مديرية سيري مررنا بأدوفا عاصمة المديرية التي تحمل اسمها[1]. ومدير هذه المديرية هو أحد السبعة رؤساء لوزارة لإمبراطورية. والإمبراطور زوج إحدى بناته لابن هذا المدير الذي تحت إمرته أربعة وعشرين مديرية صغيرة.

عندما وصلنا أمر بنصب صيوان فخم داخل قصره لاستقبالي لمدة ستة عشر يوماً قضيتها في ضيافته. ثم أمر بأن يعد لي كل ما أحتاج إليه أثناء رحلتي في البحر الأحمر. وفي الحقيقة قد استقبلني بكرم فياض لم يكن له مثيل في العالم. كان الطعام هو لحم البقر الوحشي، وقد لاحظت أن الأبقار هنا ليس لها قرون (horns). وليست كثيرة كابقارنا في فرنسا. والاثيوبيون عادة يحبون لحمها، حقيقة لحمها طيب وطرى. وتوجد كميات كبيره من غزلان الرو، ولكني لم أر لأذكر أيّل ولا أنثاه.

بعد أن ودعنا وشكرنا ذلك اللورد على كرمه وحسن ضيافته؛ سرنا في طريقنا من خلال غابة مليئة بالقرود ذات السرعة العجيبة في القفز على

1 مدينة أدوا مشهورة بالهزيمة الساحقة للايطاليين في عام 1896. وتقع على مقربة 100 ميل جنوب الجنوب الغربي لمصوع على ارتفاع يبلغ 6,400 قدم. وصفها سولت (salt) (ص 424).

الأشجار وأُعجبنا بالألعاب المدهشة التي تأديها هذه القرود، إلى أن وصلنا مديرية (سڤاقي savavi)[1] التي وجدت فيها أن الفيل الصغير مات، والذي كنت مسؤلاً عن رعايته. في هذه المديرية شاهدنا أجود أنواع الجياد الموجودة في أثيوبيا، والتي فيها يؤسس الإسطبل الإمبراطوري. ومنها أيضاً سوف يأخذ معه السفير الخيول المهداة لفرنسا. هذه كبيرة الحجم تماثل الخيول العربية، ذات عرف مرتفع ارجلها على الطبيعة بدون (حدوة) إذ إنهم لايعرفونها؛ بل لا يعرفون أهمية الحدوة بالنسبة للحيوانات التي تحمل الأثقال.

من بعد سارقى وصلنا إلى (ديورڤارنا Durvarna)[2] عاصمة مملكه ال (تيقرا Tigra) التي بها مديرون لتَعَدُد مناطقها وأقسامها – ويسمونهم (برناقا- Barnagas) – "بمعنى ملوك البحار"[3] وغالباً هذه التسمية جاءت نتيجة لقرب مناطقهم من سواحل البحر الأحمر.

ديوڤارنا مقسمة إلى قسمين- العليا والسفلى: يسكن في السفلي المسلمون. وكل من يأتي إلى أثيوبيا عن طريق البحر الأحمر يمر بديوڤارنا. هذه المدينة التي يبلغ محيطها حوالي الفرسخين، وتعتبر المركز الرئيسي لكل السلع الواردة من الإنديز. كل منازلها مبنية بالحجر المربع وسقوفها مسطحة، يمر بها نهر (مورابار Morabar)[4] ويندمج مع نهر (تكسل Teksel)، وليس بالعريض إلا

---

1 ذكر لودولف بأن ساراو (Sarawe) تتبع لبحر النجاشي (Bahrnagas).

2 وردت باسم (دوباروا) (Dobarawa) عند لودولف وبروس وباسم (باروا) (Barua) عند الغارز وعلى الخرائط الحديثة باسم (Debaroa). وتبعد حوالى 50 جنوب غرب من مصوع.

3 بالمعنى الحرفي تعنى (ملك البحر) (bahrnagus). وفي الأصل فأن الوظيفة يديرها شخص واحد.

4 ينبع (Mareb) أو (القاش) 50 ميلاً من خليج انسلى (Annesly) وينساب شمالاً ماراً بكسلا حتى فيليك (Filik) ثم تغمره الرمال، وبالرغم عن ذلك في فترة الأمطار يكون نهراً صغيراً يصل حتى اتبرا.

أنه سريع التيار كالشلال ولايمكن تعديته إلا بخطورة شاقة. ولقد قضينا ليس أقل من شهرين ونصف بين قوندار وهذه المدينة. حيث كنت في انتظار حضور مراد (Mourat).

بعد وصولي علم المديران بوفاة الأمير (باسيل pr. Basil)[1] وهو اكبر أولاد الإمبراطور وولي العهد. ولقد كانت له كل المؤهلات والمميزات التي تجعله يخلف والده. بجانب أنه كان ذكياً وشجاعاً، وبهى الطلعة، ورحب الصدر. وكان عمره لايتجاوز العشرين عاماً؛ وحقيقة كان نجم البلاط الملكي الساطع ألمت به حمة خبيثة، أودت بحياته خلال ثمانية أيام من عودته من معركة ضارية ضد (الغالا) مع والده الإمبرطور التي أبرز فيها شجاعة فائقة، طارد فيها الأعداء وقتل منهم ثمانية بيده المجردة. لهذا الأمير حب لطيف للناس الذين كان يمكن ان يكون أباً لهم جميعاً إذا حظي بطول العمر ولم تفاجئه المنية. وهذا ماكانت تحسه وتشعر به الجماهير قبل وفاته. فعندما ذهب الإمبراطور ومعه كباراللوردات لزيارته، طلب منه الامير أن يكون رحيماً برعيته، وأن يرد للمظلومين ما ظلموا فيه من الوزراء والمديرين. هذه الكلمات تركت أثراً فعالاً في الإمبراطور نفسه، وجعلته يجهش بالبكاء ولم يستطع التوقف عنه. ولقد علمت هذا من الإمبراطور عندما أتى خبر الوفاة إلى (ديوڤارنا). وأمر بالصلاة على روح الأمير المتوفي، وينوحون عليه بالطريقة التقليدية، ومايجري على ألسنة الناس من تعدد مآثره، يجب أن يكون مخزوناً في كل ذاكر إلى الأبد.

---

1 (Fasil) اختصار لـ (Fasilidas).

مما روى معددون مناقبه أن الأعداد نصبط كميناً للإمبراطور، فحري الأمير الصغير. بأقصى سرعة لإنقاذه، مخترقاً كثافة الجماهير المزدحمة، وهاجم الأعداء من كل الجوانب بكل بسالة وشجاعة فائقة، وانقذ والده، مضحياً بنفسه. قام الإمبراطور بإخفاء نفسه، سواء أكان السبب نوعاً من السياسة كتجربة لابنه، أو نوعاً من التضليل للأعداء، واختفى عن الأنظار مع اثنين أو ثلاثة من خلصائه، دون أن يعلم أي شخص ماحدث له، فاختفى لمدة شهرين. الأمر الذي خلف كثيراً من الآلام والمتاعب المقلقة، بحسبان أنه مات. فبعض اللوردات في البلاط- من الانتهازين يتملقون الأمير الصغير بأن يتولى شؤون الحكم وأن يعلن بأنه أصبح الإمبراطور؛ وإلا سوف يعترض أحد الإخوة- ويستغل هذه الظروف، ويعلن التمرد في بعض المديريات التي يعتمد على ولاء مواطنيها له. ولكن الأمير الذي يكن حباً لأبيه رفض العرض رفضاً باتاً. وأعلن أنه سوف لايعتلى العرش إلا إذا رأى جثة والده بعينه ويتأكد من موته. وعندما عاد الإمبراطور بعد اختفائه، علم من بعض الموالين له في بلاطه بما حدث اثناء اختفائه، فلم يخلق ضجة، وتصرف في الموضوع بحكمة وهدوء، حينما اختفى المنافقون إلى الأبد.

كان لولى العرش المرشح للملكية مقاطعة - وهو أمير عليها، وعاصمته مدينة (هلنى Helene) ومررت بها أثناء رحلتي إلى (ديوڤارنا Duvarna). بها دير عظيمة وكنيسة فخمة، موهوبتان إلى الراهبة (هلنا Helene)[1]. في المكان

1 وفقاً لبروس هذا اسم لقرية مجاورة فالمكان الحقيقي هو أكسوم، العاصمة القديمة للحبشة. والتي تقع على مسافة خمسة أميال شمال شمال شرق عدوى (Aduwa) على ارتفاع يبلغ 7,000 قدم. للمزيد من الوصف أنظر بيرت

الفسيح أمام الكنيسة توجد ثلاثة أبراج هرمية تنتهي بشكل مثلثات[1] بها شارات هيروغلوفية هنالك تماثيل بدون قواعد تثبتها على الأرضية، وهنالك إيضاً مسلة[2] أطول من تلك القائمة بميدان روما، للقديس بيتر (SR. Peter). يبدو أن هذا كان في بلاد (الملكة شيبا Queen sheb)، وكانت هذه المنطقة تضم قرى كثيرة. كان الأهالي يستخرجون الرخام من الجبال، ولم يكن جودة الرخام الأوربي، كما كانوا يستخرجون الذهب أيضاً- ولقد أحضروا قطعاً منه ووجدتها ممتازة جداً. رجال الدين في تلك الكنيسة يرتدون جلوداً صفراء، طاقية للرأس من اللون والجلد نفسهما.

ا

بعد وصول الرسول الذي حمل الأخبار الحزينة بوفاة الأمير باسل، طلب (البارناقا The barnagas) إعلان خبر وفاة الأمير (باسيل prince Basil). فانطلقت في الفضاء أصوات الأبواق في كل المدن. فالكل كان في حالة الحداد، الذي يتم بحلق شعر رؤوسهم، بما فيهم النساء والأطفال. وفي اليوم الثاني حضر المديرون وبرفقتهم الجيش "المرابط"[3]، وعدد غفير من الجماهير، وذهبوا إلى كنيسة العذراء، لأداء التراتيل الدينية والدعاء بالغفران للأمير، ثم عادوا للقصر وأدخلني المديران بينهم في قاعة واسعة. كما التفَ حول القاعة كل من الضباط

في كتابه مدينة الأثيوبين المقدسة.

1 تعنى المسلات ذكر بروس بالنيته للكتابات الهيروغليفية يجب قراءة المنحوتات. الصور الجذابة لهذه المسلات موجودة في أعمال (Jones) (ص 34).

2 وعزز بروس ذلك. بأنه شاهد على جانب واحدة من هذه المسلات صورة لباب خشب، فقفله يفتح ويغلق بطريقة الأقفال المصرية في ذلك الزمن (المجلد iii، ص 501). وأكد بنت (Bent) قول بروس (ص 1184). لاحظ الفاديز سابقا هذه النقوش نفسها (ص 83).

3 الكلمة الفرنسية مليشيا وتعنى جنود.

والأعيان وبقية الرجال والنساء. وجلست فرقة من النساء بالدفوف والرجال دون دفوف، وبدأوا في الغناء وذكر مآثر الأمير بنغمات تفيض حزناً ورثاءً؛ لدرجة أنني لم أتمالك أو أسيطر على نفسي من شدة الحزن وزرفت الدموع حتى نهاية الاحتفال الحزين. وكثير من المجتمعين عبروا عن حزنهم بأن خدشوا أوجههم حتى غطتها الدماء وأحرقوا معابدهم باستخدام الشموع. هذه الإجراءات الحزينة تستمر لمدة ثلاثة أيام كعادتهم. عند وفاة أحد الأثيوبين- يرتفع الصياح الحزين داوياً، ويهرع الجيران إلى منزل المتوفى لمشاركة أهله أحزانهم، وتخفيف الحزن عليهم، والمشاركة في تجهيز الجنازة. ثم تغسل الجثة بطقوس معينة، وتلف في ثوب قطني جديد، وتوضع في تابوت وسط الغرفة المضاءة بالشموع، ثم يعددوا ويكرروا البكاء والعويل مع صوت المزامير الخافت. يصلى لروح المتوفي، يرتل آخرون مقاطع تمدح المتوفي أو يقطعون شعر رؤوسهم، ويخدثون وجوههم، أو يحرقون جسدهم بالشمع إشعاراً لحزنهم. تستمر هذه الطقوس المخيفة والمحزنة حتى يأتي رجال الدين ليحملوا الميت. وبعد أداء بعض الترانيم المقدسة مع استخدام البخور، تبدأ المسيرة، حاملين صليب حديدي في اليد اليمنى، وكتاب الصلاة في اليد اليسرى، ويحملون الجسد، ويترنمون بالترانيم المقدسة على طول الطريق، يتبعهم أقارب وأصدقاء المتوفى، مواصلين البكاء على صوت المزامير، ويحلق الجميع رؤوسهم، وهي علامة الحزن كما ذكرت من قبل. وعندما يمرون بأي كنيسة يتوقفون لأداء بعض الصلوات، ثم تتواصل المسيرة لمكان الدفن، ويجددون وضع البخور، ثم يترنمون ببعض الترانيم بأصوات حزينة، ويضعون الجسد على الأرض. وهناك يطلقون دخان

البخور- ومن الطبيعى لهذا البخور رائحة خاصة، ومميزة للجنائز. من العادة يدفنون الشخصيات البارزة داخل الكنيسة؛ أما العامة فيدفنون في فناء الكنيسة. حيث تنصب العديد من الصلبان لا تختلف عما يمارسه Carthusian Fathers. تعود المجموعة لمنزل المتوفي حيث تقام وليمة، ويلتفون هكذا لمدة ثلاثة أيام صباحاً ومساءً للعديل والأمل، وبعد ثلاثة أيام، يعترفون حتى اليوم الثامن من الحداد لمدة ساعتين تكرر لمدة عام، وكذلك بعد عام.

عند وفاة أمير أو أحد الأعيان- يعتزل الإمبراطور العمل ثلاثة أشهر- إلا إذا كانت الحاجة ماسة وعند الضرورة القصوى. مثال ذلك: عندما تقرر إرسال سفير إلى فرنسا؛ فقد دعا (مرات مراد Mourat) وأعطاه الأوامر والمراسم الخالصة للملك، وأعلن هذا للجمهور، ثم أمره بالتحرك، ولكن رحلته لم تتم؛ إذ إن الخيول التي كان ينوي أن يقدمها هدية للمك نفقت في الطريق؛ الأمر الذي جعله ينتظر حتى يصله بديلاً عنها، لهذا فقد قررت أن أواصل رحلتي، وانتظر السفير مراد في (مصوع)، ومتابعة إجراءات السفر هناك، قبل يوم من مغادرتي أعاد البارننا Bamagas الجنود الذين أوصلوني دوڤارنا، وعين 100 جندي مع ضابط على صهوة جواد، كقائد لتوصيلي إلى مصوع، وعليه فقد أعدت بعض ملازمي، واحتفظت بثلاثين فقط.

غادرت (ديوڤارنا) في اليوم الثامن من سبتمبر، وبصعوبة شاقة عبرنا شلالات نهر (مورابا Moraba) الخطرة. لوردات دوقارنا لم يأمروا الأهالى بحمل أمتعتنا- بل حملت على ظهور ثيران (Oxen) لايؤكل لحمها. وخصَّصَ

لي عشرين من هذه الثيران لتحمل المؤن الغذائية[1]، وبقية المعدات والخيام، حيث نقضى الليالي في الميادين في العراء. سكان تلك المنطقة مسلمون والبعض مسيحيون يعرضون الاطعمة وغيرها مما يلزم للمسافرين بالقوافل على الطريق.

بعد مسيرتنا بيوم تم إخباري بأن هناك شيئاً غريباً يستحق الرؤيا فى احدى الأديرة المشهورة في ذلك البلد. فاشتقت لمعرفة ذلك الشيء الغريب. فأخذت معي ضابطاً وعشرين من الرجال لضمان الأمن فى هذه الرحلة القصيرة. وقد قضينا نصف يوم لنتسلق جبلاً مليئاً بالأشجار الغابية، وعندما وصلنا قمة الجبل؛ وجدنا صليب والدير الذي نبحث عنه.

كان هذا الدير في وسط الغابة، وفي مكان منعزل وموحش، إلى أبعد حد. وفي مكان ممتد وفسيح. ترى منه ريفاً[2] فسيحاً، وكما ترى البحرالأحمر بها مئة من رجال الدين يعيشون حياة غريبة، فيها كثيرٌ من حياة التقشف المتزمتة أشبه بحياة سكان (هلنى). غرفهم ضيقة، إلى درجه لايستطيع الشخص أن يتمدد فيها. لا يأكلون اللحوم كبقية رجال الدين في أثيوبيا، وأنهم شديدوا العقيدة لربهم والتوكل عليه- وهذه هي طريقتهم في الحياة.

رأيت بينهم رجلاً يبلغ الستين فى عمره، ويعيش على ورق الزيتون لمدة سبع سنوات خلت، مما جعله يبصق دماً، الأمر الذي اتعبه كثيراً، فأعطيته بعض العلاج، وخصصت له غذاء مُعيناً ليتناوله، وهو أخو مدير (التقرا).

---

1 الغذاء وبعض الاحتياجات الأخرى بالنسبة للرحلة يجب أن يوفر من قبل المسافرين أنفسهم.

2 زار بنت بيزن وديرها في عام 1893 وتحدث (ص 44) عن موقع الدير واصفاً له (بأنه من أعظم الأديرة في العالم، وهو يقع على قمة معزولة، على ارتفاع 6500 قدم فوق سطح البحر ويطل على عدد من القمم حتى المياه الزرقاء للبحر الأحمر وقد اعطى صورة للدير (ص 53). وسمى (Salt) هذا الدير بـ(بيسان) وأبانه على خريطته بأنه على بعد 30 ميل جنوب غرب مصوع.

قابلنا راهب الدير بكل ترحاب وكرم فياض. وعند وصولنا غسل أرجلنا وقبّلها، في حين كان واتباعه من رجال الدين يقيمون الصلوات، ويتلون بعض التواشيح. ثم ساروا بنا في موكب إلى الكنيسة مترنمين بتواشيحهم الدينية على طول الطريق المؤدي إلى الكنيسة. ثم أدخلونا في قاعة، وقدموا إلينا المرطبات، وهي عبارة عن قطعة من الخبز المعطونة والبيرة (bread, butter, beer)؛ لأنه في ذلك المكان لايشربون الخمر، ولا المِيد، ولا يظهر الخمر إلا عند تلاوة القداس.

وكان الراهب معنا في كل الأوقات، ولكن لم يأكل معنا الطعام. دخلت الكنيسة لا أرى واتأكد من المعجزة التي تحدثوا عنها- وهي كانت الغرض والهدف الرئيسى لهذة الرحلة القصيرة، فقد أكدوا لي أنه في أحد جوانب[1] الكنيسة يوجد عامود ذهبي يبلغ طوله أربعة قدم، وفي سمك عصاة، وهذا العمود الذهبي يتأرجح فى الهواء، وليس مثبتاً أو مربوطاً على قاعدة ما. فطلبت من الراهب ان أكون قريباً من المشهد لكي أتمكن من الرؤيا جيداً إذ ربما يكون هذا العمود معلق بشيء محجوب عن الرؤيا، ولكني اقتنعت بأن ذلك العمود الذي- فعلاً معلق في الهواء لم يكن متصلاً بأي شيء- خاصة وأني فحصته بعصاتي من تحته وفوقه وكل جوانبه، ولم أجد شيئاً مرتبطاً به. ظل هذا الأمر موضع حيرتي حتى الآن، حيث إنه لا أجد له تحليلاً أو تعليلاً طبيعياً حتى هذه اللحظة.

---

1 يقصد جانب المذبح الذي تقرأ منه الرسائل اثناء القداس. خطأ واضح، فالمصطلح الصحيح هو (Abba) (الأب) الذي استخدمة الفاريز (ص 34). زار الفاريز الدير 1520 واعطى واصفا كاملاً له، ولكنه لم يتطرق لأي صولجان من الذهب أو تعليق بهذا الخصوص. شاهد قبر فيليب وذكر بأنه قد يس ولكن من نوع آخر (ص 34).

بعد ثمانية أيام من فراقنا لبلدة (دوڤارنا Duvarna) وصلنا بلدة (اركوڤا Arcouva)[1]، وهي بلدة صغيرة على ساحل البحر الأحمر.

قد أخطأ الجغرافيون حين سموها (اركويز Arquies). في اليوم التالي عبرنا أحد أزرع البحر على أحد القوارب إلى مصوع (Massoua)[2]، وهي جزيرة صخرية صغيرة، بنيت عليها قلعة تتبع للباب العالي، وبها منزل الباشا. هذه القلعة قوتها صغيرة، ويمكن لشخص واحد مزود بالخبز والعساكر أن يصبح سيدها.

عندما كنت هنالك، أتى مركب إنجليزى ورسى بالقرب من الشاطئ، مما أحدث نوعاً من الذعر لكل سكان الجزيرة. فأخذوا يستعدون للدفاع؛ فأرسل لهم ربان السفينة رسالة تطمئنهم بأنه من الإنجليز، وفي تحالف مع الباب العالي.

الباشا المقيم في مصوع يحكم أيضاً سواكن الواقعة على ساحل البحر الأحمر، مدينة تعتمد على الإمبراطورية العثمانية، وهي منطقة لصيد اللولؤ والسلاحف التي لها تجارة رائجة، تعود على الحاكم بإيرادات مجزية.

استقبلني الباشا في مصوع، بترحاب حار، حسب توصية إمبراطور أثيوبيا الذين يخشون بأسه- لأن الأثيوبين يمكن أن يصبحوا سادة هذا المكان الذي كان يتبع لهم، أما بتجويعهم، أو بقطع إمداد الماء العذب، حيث إنهم

---

1 أركيكو، تقع على البر الرئيسى، مقابلة الجزيرة مصوع.

2 مصوع من اشهر الموانئ على البحر الأحمر، وصفها هاميلتون (المجلد i، ص 25) بأنها (تقع على أطراف النهاية الشمالية الغربية للجزيرة الواسعة وتعتبر ميناءً جيداً لشحن أي نوع من السفن. لها حامية تتكون من 250 جندي من الأتراك (يقيمون في قلعة شيدها البرتغاليون)، وبحسب عاداتهم اللاخلاقية فإنهم يضطهدون الأجانب والأهل عند الحضور لهذه الحامية بغرض التجارة. انظر بروس (المجلد ii، ص 246).

يُحضرون الماء من (اركوڤاArcouva) لعدم وجود ماء عذب في تلك الجزيرة الصخرية.

في الزمن الذي كنت فيه في أثيوبيا، علمت أكثر من مرة أن الهولنديين حاولوا الدخول في تعامل تجاري مع الأثيوبيين، ولكنهم[1] لم يفلحوا في ذلك- أما للفارق الديني، أو لقوة الهولنديين في الهند الشرقية، أن تجعلهم يشكون في نوايا الهولنديين. ومن المؤكد أن الأثيوبين لن يدخلوا في أي تحالف معهم.

لقد رغب الإنجليز أيضاً في عمل اتفاقية مع الأثيوبيين ولقد نما إلى علمي بأن أحد التجار الأرمن[2] رافق الإنجليز، أملاً في المتاجرة هناك لتجلب لهم مصلحة مادية؛ بجانب تجارة الذهب وسن الفيل والزباد، فإنهم سيجلبون معهم الألوة، اللبان المر، القرفة الصينية، التمر هندي والبن[3]؛ التي لايقدرها الأثيوبيون حق قدرها. فقد كانت تصدر إلى اليمن والجزيرة العربية؛ ومن هناك تصدر للجهات الأخرى- لأنه في الوقت الحالي، فإنها تزرع في أثيوبيا على سبيل حب الاستطلاع.

إن نبات البن يشبه إلى حد كبير نبات الاسن[4]، أوراقه دائمة الخضرة، ولكنه أكبر وأكثر تعقداً. تحمل ثمار مثل جوز الفستق تغطيها قشرة تحتوي على حبتين وهي المسماة قهوة. هذه القشرة تكون خضراء في البداية، وعندما تنضج

1 اضاف النص الفرنس الآتي (سمعتهم يقولون بانهم لايثقون في اي مسيحى لا يصوم أو لا يحترم القسيسين أو لايؤمن بأن المسيح حاضراً بالفعل عند طقوس القربان المقدس.
2 يسمى أقابايري (Agapyri) (انظر في ص 169 لهذه الحادثة).
3 الاقتراح بأن تغلى ثمار التوت حتى تصير عقيمة للحفاظ عليها ومنع استخدامها كحبوب للزراعة في بلاد أخرى.
4 نبات عطري.

أكثر تصبح بنية اللون، إنه من الخطأ وضعهم القهوة في ماء مغلي ليمنعوا نموها "كما أكدّ لي البعض" فإنهم يقشرونها من القشرة التي تنمو بداخلها ويرسلونها بعيداً دون ضجة.

لقد أصبت بقلق كبير لتأخير السفير مراد، لأنني أخشى فوات رياح المنسون. كتبت إليه رسالة توضح بأني عقدت العزم على السفر وانتظاره في جدة. وقد أخطرني بأن أذهب وسوف يحاول اللحاق بي هناك، ولم يتمكن من مرافقتي، نسبة لوفاة الأمير باسيل والصدمة التي عطلت رحلته. فقد سرحت العاملين المرافقين لى. ولقد أعطيتهم مكافآت مجزية تليق بالقيم الفرنسية. وقد زرفوا الدموع، وأجهشوا بالبكاء؛ وأبدوا رغبتهم بالحاح على مرافقتهم لي، ولكني لم أستجب لرغبتهم هذه. ثم أبحرت في يوم (28) أكتوبر على ظهر سفينة صنعت في سورت (Surate). لم يكن لدي أي مانع أن أخاطر بالسفر في سفينة من تلك البلاد التي تبدو صغيرة وغير آمنة، والألواح الخشبية غير آمنة رغم أنها قد غطيت بالزفت والقار وربطت بالحبال، وشراعه مصنوع من سعف الدوم القديم البالى[1]– مع سوء الإدارة وعدم مراعاة حمولته. وبالرغم من أن العاملين في المركب لايزيدون عن سبعة أو ثمانية، فإنهم ذو فائدة عظيمة في التعامل مع البحر.

وصلنا (دهلاك Dahlak)[2] بعد يومين من مغادرتنا لمصوع. المراكب التي تأتي من (الإنديز Indies) ترسوا هنا، للتزود بالماء والمؤن المتوفرة هنا

---

1 (Domi) في النص الفرنسي ولمعناها انظر صفحة 159.
2 (Dahlak) هو رئيس مجموعة من الجزر التي تقع بعيدا عن مدخل مصوع.

والتي ينقصها الخبز الذي لا يجده سكان المنطقة انفسهم الذين يعيشون على اللحوم والسمك، وبقينا في هذه الجزيرة ثمانية أيام بسبب الرياح العكسية. ولكن بمجرد هُبوب الرياح أبحرنا إلى جزيرة (أبو الغفار Abu Ghaffar)[1] ولم ينس ربان السفينة بأن يأخذ بعض المشاعل، ويضعها على قبر (أبو الغفار). لان المسلمين يعتقدون أن سفنهم سوف تتحطم وتغرق في البحر إن لم يفعلوا ذلك الواجب (لأبى الغفار) المزعوم. هذا وان المسلمين يعتقدون بأنه من الأولياء أصحاب الكرامات. بعد ذلك ركبنا عرض البحر الصخور القريبة من سطح البحر، مما يشكل خطورة عظيمة على السفن المبحرة من تلك المنطقة المليئة بتلك الشُعب المرجانية. رغم تعددها في تلك المنطقة فقد تغلب عليها الربان وبحارته بمهارة فائقه. في اليوم السادس وصلنا (كاوتنبول Kautumbul)[2] وهي صخرة عالية جداً وتبعد اليابسة بنصف فرسخ من (Terra) بالجزيرة العربية. فرَسَينا بين الرمال والشاطئ، وقضينا الليل هناك. وفي اليوم التالى أبحرنا على شاطئ الجزيرة العربية ورسونا في مرسى إبراهيم[3]. وبعد ثمانية أيام من الإبحار وصلنا إلى (كونفيدا Cunfida)، وهي مدينة جميلة تتبع لملك مكة؛ وهي أول ميناء تحت أمرته من الناحية الجنوبية، وبها تجارة رائجة، حيث تدفع فيها العوائد الجمركية مرة واحدة فقط - بينما تدفع مرتين في الاماكن

---

1 اسماها بروس Dahalattom مع ملاحظة أن بونسيه أخطأ في اسم القديس لهذه الجزيرة.
2 سمى بروس (المجلد ii، ص 199) هذه الجزيرة باسم (Kotumbal) ووضعها في خط عرض 57 17 على بعد ميلين من الساحل العربي. وهي جزيرة بالقرب من جزيرة فراسان.
3 مرسى إبراهيم بالقرب من (Allith) على بعد 12 ميل شمال شرق ضفة فاراسان. مرسى الكلمة العربية المصرية لـ (المرفأ).

الأخرى. وبها مخازن واسعة لحفظ البضائع التي تفرغ هناك، حتى تحمل على ظهور الجمال إلى جدة بعد مسيرة خمسة أو ستة أيام بالجمال[1].

لقد مكثنا ثمانية أيام في (كونفيدا) أخذنا فيها قسطاً من الراحة، وتوقعنا اعتدال الرياح. كانت المدينة دائبة الحركة التجارية، إذ يأوي إليها أعداد غفيرة من التجار المسلمين (العرب والهنود)، وكانوا لا يرتاحون للهنود والوثنيين[2]. المواد الغذائية رخيصة الثمن، وكمياتها أكبر من المعروض في جدة، والتي وصلنا اليها في الخامس من ديسمبر سنة 1700. وكنا نبحر بالنهار من كواتمبول إلى جدة وترسو السفن ليلاً تفادياً للشعب المرجانية المنتشرة في البحر.

جدة مدينة كبيرة على ساحل البحر؛ ومنها إلى مكة تستغرق الرحلة نصف يوم وعلى طريق آمن. أما الميناء فالمناطق العميقة موجودة في بعض الأماكن مما يسمح برسو السفن الخفيفة، ولكن السفن الثقيلة ترسو على بعد فرسخ من الشاطئ (المرسى). نزلت إلى الشاطئ، وذهبت إلى وكالة[3] (Oquel)[4]، وهو مكان فسيح به ثلاثة طوابق عالية[5] – وبه ساحة واسعة في الوسط. في الطابق الأرضي تحفظ الأمتعة والمعدات؛ أما النزلاء فقد خصصت

---

1 جدة. أضاف النص الفرنسي بأن مسافة المسير إليها تتراوح ما بين خمسة إلى ستة الأيام.

2 تعنى التجار الهنود.

3 المقصود وكالة من المعروف انتشار الوكالات والخانات وقصور القوافل وفي معظمها فإن الطراز المعماري موحد حيث توجد مساحة في الوسط لنزول الحيوانات ويخصص الطابق الأرضي لمخازن والعلوية للنزلاء من التجار وغيرهم.

4 نوع من أنواع الحانات التي وصفها (Pitts) (ص 13). أما الاسم فلا يوجد أثر له. قد يكون مصطلح محلى غير مدون في القواميس أو كما اعتقد السيد بيكنتهام بأن السيد بونسي قد اختلطت عليه كلمة (UKL) (الأكل) هي الوكالة المعروفة أي الفندق (المراجع).

5 يقرأ النص الفرنسي هكذا، فهو عبارة عن أربعة مباني سكنية بها ثلاثة طوابق، وإحدهما في وسطه فناء.

لهم الطوابق العليا. هنالك وكالات عديدة، مثل هذه في جدة. عندما يأتي المسافر، يبحث في العادة عن غرفة ومكان لحفظ أمتعته، والسعر ثابت ومعروف لا يزيد ولا ينقص أبداً. فقد دفعت أربعة جنيهات لشهر تشمل (Twocrowns) غرفتين وبرندة ومطبخ[1]. هذه الخانات تُعتبر أماكن مقدسة– بعيدة عن الأشرار واللصوص. بل المزعج فيها أنها لاتمد النزلاء بكل مايحتاجون إليه. بل إنهم يشترون أثاثاتهم ويعدون طعامهم بأنفسهم أو بواسطة خدمهم.

بعد يومين من وصولي لجدة، حضر ملك مكة مصحوباً بعشرين ألف رجلاً من الجنود. نصبت خيمته في مدخل المدينة ومتجهة نحو مكة[2]. ولقد تمكنت من النظر إليه هناك. يبلغ من العمر حوالي ستين سنة، له مظهر صارم وملوكى، وله شق تحت الشفة في الجانب الأيمن. رعاياه لايحبونه، إذ إنه لا تظهر عليه معالم شفقة أو رحمة. طلب من الباشا في جدة أن يتصل بالباب العالي ليدفع له خمسة عشر ألف جنيه ذهباً، وإلا سيعلن عليهم الحرب إنْ لم يدفعوها له فوراً. وفرض على التجار التابعين للباب العالى ان يدفعوا ثلاثين ألف جنيه ذهباً. ولقد وزع كل تلك المبالغ على جيوشه الضخمة العدد التي تجعله حاكماً على المنطقة. هنالك تأتي قوافل الحجاج من الإنديز ومن تركيا إلى مكة، ومعهم الأغنياء من التجار من الإنديز إلى أوروبا، ومن أوروبا إلى الإنديز.

1 شرفة تعني برندة أمام مجموعة غرف.
2 انظر روايات دانيل بخصوص هذه الغارة (ص 74).

عندما تصل هذه القوافل مكة تجعل منها سوقاً كبيراً للتجار المسلمين، ويعرضون ثلاثة أرباع ثروات العالم الغالية لعرضها للتبادل التجاري في هذا السوق الضخم. في سنة 1699، 1700 أخذ ملك مكة يعبث بقوافل الإنديز وتركيا وينهبهما. هذا الحاكم يسمي نفسه (الشريف)[1]، ويدّعي أنه من سلالة النبي محمد. كان الباب العالي منذ زمن طويل في وضعٍ ليعطي مرتبة لهذه المملكة. ولكن الشريف- الذي عُرف بصرامته؛ لايعترف بتبعيته للباب العالي الذي يصنفه ويدعوه "ابن المماليك"[2] (عبد). لأنه ابن عبد.

المدينة هي عاصمة المملكة – وهي مشهورة بأن بها قبر محمد، كما إن مكة مشهورة بأنها المكان الذي ولد فيه (صلى الله علية وسلم). الملك عادة لايسكن في المدينة، لأنه في كل الأوقات يكون على رأس جنوده قائداً.

عندما يأتي الأتراك للمدينة، يخلعون ملابسهم ويلتحفون بقطعة من القماش حول جسمهم- كعلامة لاحترام حرمة المدينة، من مسافة ثلاثة أو أربعة فراسخ، وعلى الذين لايخلعون ملابسهم، يجب عليهم إخراج كفارة مالية وفدية لله لشرف محمد.

لايسمح للمسيحيين بالسكن في جدة – خاصة الأوربيين، نسبة لأن جدة تعتبر مجاورة لمكة، والمسلمون لايقبلون ذلك، ومع هذا توجد بها تجارة واسعة، حيث إن السفن القادمة من بلاد الهند الشرقية ترسو هناك (في جدة). يستخدم الباب العالي حوالي ثلاثين سفينة كبيرة للمتاجرة في تلك البحار، رغم أن هذه

1 الشريف معناها (النبيل).
2 يجب أن تكون ابن مملوك.

السفن يمكن أن تحمل مئة مدفع إلا أنها لاتحمل ولامدفعاً واحداً. كل شيء في جدة غالي الثمن خاصة الماء لكثرة التقاء البشر هناك من جهات العالم. قيمة اللتر (قياس فرنسا) من الماء اثنين أو ثلاثة بنس (pence)، لأنه يأتي من مسافة أربعة فراسخ (leagues).

أسوار المدينة لا فائدة منها، والقلعة المتجهة نحو البحر في وضع أفضل، ولكنها لاتحتمل أي نوع من الحصار، رغم أن بها بعض المدافع لحمايتها. ومعظم المساكن مبنيه بالحجر ذات سقوف مسطحة على النمط الشرقي.

كنت على شاطئ البحر، وعلى مقربة من المدينة رأيت ضريح، علمت أنه قبر أمنا الأولى (حواء). الريف حول جدة كئيب وغير منعش (unpleasant) ولا يوجد شيء لرؤيته، فقط صخور جرداء، وأراضي غير مزروعة مليئة بالرمال. كانت لي الرغبة في زيارة (مكة)، ولكنها ممنوعة (محرمة) على المسيحيين، لايوجد نهر بين جدة ومكة؛ ولكن البعض أكدوا لي وجود ينبوع يحضرون منه الماء إلى جدة.

بعد مكوثي شهراً في جدة وصلتني رسالة من السفير مراد بأنه لايستطيع الحضور في موعده، وإذا فقد فرصة رياح المنسون فسيضطر للانتظار فترة أطول، لهذا فقد قررت السفر إلى (السويس)، وزيارة جبل سيناء الذي وعدني (مراد) أن انتظره فيه إذا مالم يتمكن الحضور إلى جدة.

في يوم 20 يناير 1701 كنت على ظهر سفينة (للباب العالي)، التي أمر ببنائها في سورات. بالرغم من أن بعض السفن كبيرة في حجمها، إلا أنها مكونة من طابق واحد، له سور عالٍ على جوانبه. لدرجة أن أطول الرجال لا

يستطعون أن يطولوها وقوفاً. كوابلها قوية، وساريتها وأشرعتها لا تختلف عما لدينا. الغريب في هذه السفن أن بها أماكن وصهاريج لحفظ الماء لمدة خمسة أشهر، ويكفى مئة وخمسين رجلاً. هذه الصهاريج (فناطيس) مطلية بطلاء يجعلها تحفظ الماء صافياً ونقياً بدرجة تفوق ما نستعمله في أوروبا.

كانت هنالك صعوبات كثيرة عند الابتعاد من هذه المنحدرات الرملية والتي تملأ البحر حول جدة. الأمر الذي دعانا أن تكون إقامتنا بالقرب من الشاطيء الأيمن. في كل ليلة كنا نرسو قريباً من الشاطئ تفادياً للوحل لضحالة الماء بالقرب من الشاطئ. الأمر الذى يتفاداه البحارة بجدارة فائقة، وهي تُرى من كل الجوانب على سطح الماء حينما يمرر ربان السفينة بينها بكل جدارة ومهارة فائقة. اكتسب هؤلاء الربان هذه الخبرة منذ نعومة أظفارهم، فإن الكثير من هؤلاء البحارة ولدوا داخل هذه السفن الطافية على سطح الماء.

بعد أن أبحرنا لمدة خمسة أو ستة أيام رسونا على جزيرة حساما (Hassama)، وهي على بعد فرسخين من اليابسة. هذا المكان ليس به سكان، ولكن به أجود أنواع المياه العذبة. ومن هناك ذهبنا إلى السويس، حيث يرمي الهلب كل ليلة بالقرب من اليابسة. وكنا نرسو بالقرب من الشاطئ. لكن الأعراب هناك لا يرغبون فى تقديم أي نوع من الخدمات لنا. أخذت الرحلة من (حساما إلى ينبع) اثنا عشر أو ثلاثة عشر يوماً. يبنع مدينة جميلة للغاية، بها قلعة للدفاع عنها على شاطئ البحر، وليس بها دفاعات تُذكر. وهي تخضع لملك مكة. لم أخرج لأرى معالمها، لأن الأعراب يهاجمون كل جوانبها ونواحيها

وينهبون ممتلكات وأمتعة المسافرين، ويسيئون لمن يتجولون بالخارج على الشاطئ.

عطلت الرياح العكسية سيرنا ثمانية أيام. بعد يومين من مغادرتنا لينبع رسونا بين رفين صخريين، حيث هبت عواصف شديدة، حطمت اثنين من الكوابل، مما عرضنا إلى خطر أن نفقد، ولكنها لم تستمر طويلاً.

(موالح)[1] هي المكان الثاني الذي أتينا له، وهي مدينة كبيرة مثل ينبع، بها أيضاً قلعة، ولكنها ضعيفة بالنسبة لمتطلباتها الدفاعية.

ومن هنالك مررنا على (شرما Churma)[2]، وهي مرسى جيد لحماية السفن من العواصف. هذا المكان ليس بالمدينة ولا بالقرية، بل مجرد خيام يسكنها عرب. وصلناها في يوم (22) أبريل، حيث إن الرياح العكسية عطلت مسيرتنا، ولما تضايقت من البقاء في البحر نزلت في (شرما). ومن هناك ذهبت بالجمال إلى (تور Tour) في مدة ستة أيام.

(طور Tour) تتبع للباب العالي، ولها حامية بقيادة (اغا Aga) في القلعة لحماية المنطقة، بها عدد كبير من اليونانيين المسيحيين، ولهم دير لشعائرهم يعتمد على الدير العظيم في جبل سيناء، وهنا علمت بأن المطران، وهو مشلول نصفي، قد أُعلم بوصولي جدة، فترك أوامر في الطور بأن أزوره، فذهبت لزيارته، وقد أخذت الرحلة له مدة ثلاثة أيام، تخللتها متاعب ومشاق جمة في السير على الجبال. وأقيمت الكاثدرائية على سفح جبل سيناء. أبوابها ومداخلها

1 (AL-Muwailih) المويلة.
2 شرما ربما شرم الشيخ الحالية.

محكمة الإغلاق دائماً، احتياطاً ضد الغارات التي يمارسها الأعراب من وقت لآخر.

قدمت على الفور احترامي لرئيس الأساقفة؛ وهو رجل رزين ومحترم، ويبلغ من العمر أربعة وتسعين عاماً، وهو مصاب بشلل نصفى، ولم أملك له غير الرثاء لحاله، لأنى أعرفه منذ سنوات خلت حينما كنا فى القاهرة عندما كان مريضاً وعالجته. ولحسن الحظ أن التقى به الآن هنا؛ لأجعله يقف ليلقي القداس الاسقفي في عيد الشرقيين، والذي لم يفعله منذ زمن طويل.

هذا الدير[1] بني بنياناً قوياً، وأحيط بجدران قوية، وجميل للغاية. والكنيسة عظيمة، وقد أقامها الإمبراطور (جوستنيان Justinian)، ووهبها كوقف ديني، بالاضافة إلى منزله للمساكين والبؤساء، ثم إنهم لايتعاطون الخمر، ولم يأكلوا لحماً أبداً حتى إذا أصيبوا بمرض خطير، ويشربون ماءً عذباً يحضر إليهم من ينبوع داخل الدير. يسمح لهم بتناول قليل من شراب يستخلص[2] من البلح ثلاث مرات في الأسبوع؛ كما وأنهم يصومون الصيامات الأربعة حسب طقوس الكنيسة للشرقيين. وفي الأيام الأخرى يعيشون على الأعشاب والسمك المملح، وأنهم يستيقظون في جنح الليل، وينشدون بعض التواشيح والأذكار، اصطحبونى إلى ضريح[3] من الرخام للقديسة (كاثرين Cathrine)، ورأيت فيه يداً جافة

1 أنظر (Baedeker) (ص 202) وبوركات (Syria) (ص 451). وفون هارف (ص 141).

2 ورد بيدكر (ص 202) (أن الرهبان محرم عليهم أكل اللحوم وتعاطي الخمور، ولكن مسموح لهم تعاطي الخمور المحلية المصنوعة من التمور (العرق).

3 أضاف النص الفرنسي الآتي (مغطاة بقطعة من القماش المذهب).

للقديسة[1] وبأصابعها ختم ذهبية. كبير القساوسة، وهو أيضاً رئيس الدير[2]، له نائب يقوم مقامه أثناء غيابه.

دفعني حب الاستطلاع لأتسلق الجبل حتى أرى المكان الذي أعطى فيه الله لوحي القانون لموسى؛ سماحة رئيس الأساقفة جعلته يعين رجل دين ليصحبني. فتسلقنا على الأقل أربعة آلاف عتبة، حتى وصلنا جبلاً به صالة جميلة. ثم زرنا معبد (الياس Elias)[3] وأفطرنا عند النبع. بعض رجال الدين ذكروا لى معجزة. لقد ظهر "عيسى" لأحد الرهبان، وأخبره بأن يبني كنيسة في الغابة في مكان يجد فية عموداً من الذهب معلقاً في الهواء. أبونا "فليبوس" لم يشك فى أمر الرب، فذهب وشاهد العمود الذهبي وبنى الكنيسة.

انتظرت في هذا الدير لمدة شهر متوقعاً لحضور السفير مراد حتى يئست من رؤيته. فجأة علمت أنه ليس بعيداً، ولم يكن لدى الشجاعة لأذهب، حيث لم أستعد قوتي بعد رحلة اليوم الأول، فسررت وانتعشت لهذا الخبر. فذهبت لمقابلته وتقديمه لرئيس الأساقفة، الذي قابله بكل ترحاب ومودة. وهكذا عرفني بكل المشاق والمتاعب التي صادفته في الطريق أثناء الرحلة، كما أخبرني بوفاة الأمير باسيل (Basil) كانت من العوامل التي عطلت مسيرته، وبالرغم من حزنه إلا أن الإمبراطور قد قابله، وانتظر في (ديوڤارنا) حتى صدور تعليمات

---

1 لاحظ فابرى عندما زار الضريح بأن نصف الجثة هو الذي تبقى والنصف أخر منها تبعثر. كما شاهد فون هارف الرأس وبعض الأطراف (ص 142).

2 ذكر بيدكر (ص 202) (أن الدير يترأسة رئيس الاساقفة ومن حالة غيابه بنيوب عنه أو الوكيل ولكن المسؤول بالفعل هو الحاكم أو المحافظ عن شؤون الدير يسمى (Oikonomos). كان هذا الواقع في زمن زيارة بوركهارد.

3 عبارة عن مبنى من الحجر الأبيض المسطح، يحتوى على كنيستين صغيرتين مخصصتين للرسوليين إليجا واليشا (بيدكر 206). أنظر أيضا فون هارف ص 144.

جديدة من الإمبراطور. وأخبرني بالمعاملة السيئة التي وجدها من ملك (مكة). حيث أخذ منه الأطفال الأثيوبيين المرسلين إلى فرنسا، وانجرفت السفينة التي كانت تحمل الهدايا بالقرب من طور، وأن تسع سفن كبيرة محملة بالبن (coffee) قد حجزت بالميناء في تور، لأنها وصلت متأخرة، لهذا فقد ارتفع سعر البن في القاهرة، وتلك البواخر لم تتمكن من الوصول إلى السويس التي تفرغ فيها السلع التجارية، وتشحن فيها أخرى مثل الأقمشة الحريرية، والقمح والأرز، والمواد الأخرى من مصر للتبادل مع السلع المصدرة من (بلاد الهند الشرقية).

السفير مراد أخذ قسطاً من الراحه لمدة خمسة أيام في جبل سيناء، ثم رجعنا إلى طور حيث تجمعنا وأخذنا مهماتنا، وواصلنا رحلتنا من ذلك المرفأ، وواصلنا الرحلة بالبر على الشاطئ إلى (السويس Suez) التي وصلناها بعد خمسة أيام.

السويس مدينة صغيرة في النهاية القصوى للبحر الأحمر، وهي مرفأ تابع للقاهرة على بعد ثلاثة أيام. تحكم هذه المدينة من قاعة بنيت على النمط القديم، فنصفه الأمين ولها حاكم وحامية عسكرية قوامها مئتا رجل ومخازن زخيرة ممتازة. المنطقة حولها ليست جميلة لا شيء يمكن أن تراه سوى الصحراء المليئة بالصخور والرمال. لايوجد فيها مورز ماء كما هو الحال في جدة، ولكن أفضل لحدٍ ما، بالرغم من أنهم يجلبون الماء من أماكن بعيدة.

عند حضوري في (طور) كتبت إلى السيد مايلت (Monsieur Maillet) القنصل الفرنسي في القاهرة، وأخبرته بوصول السفير، فطلب مني أن أسرع في

الوصول إلى القاهرة. فأستجبت لطلبه؛ وذهبت بأول قافلة متحركة إلى القاهرة – وكانت مكونة من ألفي جمل، فأخذت بعيرى (وحيد السنام)، وقطعت مع القافله حوالي ثلاثة فراسخ. ثم انفصلت من القافلة، ووصلت[1] القاهرة خلال أربع وعشرين ساعة، دون أي توقف في الطريق. فالبعير (وحيد السنام) عادة هو أصغر من الجمل العادي، لكنه سريع في خطاه، ولا يستخدم للبضائع فقط لحمل الناس.

عند وصولي للقاهرة سلمت تقرير رحلتي للقنصل الفرنسى، وطلبت أن يعد منزلاً مريحاً يليق بالسفير الذي قدم بعد يومين، وهنا قدم السيد مايلوت للسفير كل الإكرامات الواجبة، ووصل لاتفاق معه بأن أسافر إلى فرنسا لأخطر البلاط الملكي عما رويته.

في استطاعتى أن أكتب المزيد فيما يخص أثيوبيا، وأن أعطي روابان عن حكومة- تلك الإمبراطورية العظيمة، في دينها عن، الوظائف، وفناء القضاء، وعلم النبات والطب؛ وشعرت بمتعة عظيمة للراحة التي وجدتها بعد هذه الرحلة المؤلمة، وأن جو فرنسا قد أعاد إليّ صحتي بأكملها، فنحن الأطباء الذين نعالج أمراض الآخرين نفقد فن المقدرة على معالجة أنفسنا.

---

1 في يوم الـ 20 من يونيو 1701 (أنظر ص 170).

دار جامعة السودان المفتوحة للطباعة
الطابعون